

غداً.. تولد شمسُ اخری

الناشر : دار الرشاد

١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة

تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١٥

رقم الإيداع : ٩٥ / ١٠٤٩٠

الترقيم الدولى : 977-5324-20-3

طبع : آهون

العنوان : ٤ عطفة فيروز - متفرع من إسماعيل أباطة

تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

التجهيزات الفنية أرمس للكمبيوتر والتجهيزات الفنية

٣٢ شارع على عبد اللطيف - مجلس الشعب لاطوغلى

ت : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

خطوط الغلاف : محمد حمام

تصميم الغلاف : محمد فايد

غداً تولد ممسراً غمياً

رواية

بقلم:

الدكتور حسين مؤنس



obeikandi.com

أهم شخصيات الرواية

- الزوجة: نادية بدر الدين حسن كريمة الدكتور بدر الدين حسن .
الزوج : ماجد توفيق صادق - وكيل الوزارة المساعد بوزارة الاقتصاد .
الأولاد :
طارق - طالب بكلية الطب ٢١ سنة .
سوزان - طالبة بكلية الآداب قسم لغة إنجليزية ٢٠ سنة .
أحمد - طالب في المرحلة الإعدادية .
الدكتور محمود - شقيق ماجد طبيب أمراض نساء فوق سن الخمسين بقليل .
صديقة الزوجة : أمينة زهدى - مديرة مكتب السفير في سفارة أجنبية .
صديقة ثانية للزوجة : زاهية إسماعيل على - متزوجة ولديها ٥ أولاد وتعمل سكرتيرة السفير في سفارة أجنبية .
الطباخ : عم إمام في السبعين من عمره .
صديق الابن طارق : سامح نور - يدرس الطب أيضاً .
والد الصديق : نور سلامة - مدير عام في شركة قطاع عام .

أهم شخصيات الرواية

صديق ثان للابن طارق : عصام عاشور — طالب طب ووالده يملك مكتب استيراد وتصدير .

مدير البيت الأمريكى : مستر ادواردز — ممثل السفارة فى إدارة البيت الأمريكى .

مدير الحسابات فى البيت الأمريكى : المستر زكى — مدير الشؤون الإدارية والمالية فى البيت الأمريكى .

خادمة غرفة الزوجة فى البيت الأمريكى : أنيسة — سيدة فى الأربعين من عمرها ولكنها لا تعتنى بمظهرها .

* ■ *

دون أن يوقظها جرس أو منبه نهضت جالسة في فراشها ونظرت إلى المنبه إلى يمينها على المنضدة الصغيرة ، الساعة الخامسة والنصف تماماً ، عجباً للإنسان : بداخلة ساعة توقظه في الموعد الذى تعود أن يستيقظ فيه ، وأحياناً في الموعد الذى يريد أن يستيقظ فيه .

كان نور الصباح قد أخذ يفيض على الكون ، إنها تريد أن تنهض ولكن رأسها وجسمها كله لا يزال نائماً ، إنها بحاجة إلى ساعة نوم أخرى ، ربما نصف ساعة أو حتى ربع ساعة ، ولكن لا بد أن تنهض ، هذا هو الواجب ، من اثنتين وعشرين سنة وهى تعيش للواجب .

وهزّت رأسها وهى جالسة في الفراش كأنها تنفض النوم ، لم تستطع أن تطرد النوم ، ولكنها حاولت ونزلت من سريرها ، إنها تنام في غرفة وحدها وإلى جانبها غرفة زوجها ، إنه لا يزال يغط في نومه ، إنها تنام في غرفة وحدها لكيلا توقظه ، إنها تستيقظ في الخامسة والنصف وهو في الثامنة .

ونهدت واقفة ، وسوّت عليها ثوب النوم الحريري . إنها في الحادية والأربعين من عمرها ، وهى حريصة جداً على جمالها . كانت تقول إن جمالها هو الشيء الوحيد الذى تعتبره ملكها في هذا البيت ، ولا يجوز لأحد أن يتدخل في شأنه . وهى أنيقة لأن الله خلقها تحب الأناقة منسرحة القامة ممتلئة بعض الشيء . هذا حكم السنين ، ولكنه حكم جميل .

وأزاحت الستار فدخل ضوء الصباح الباكر . ثم فتحت باب
البلكون فدخل هواء مُنَعَش نقي ، وذهبت إلى المرآة وأضاءت نور
الحجرة ونظرت إلى وجهها وابتسمت : لا زالت شابة أنيقة ومرت
بأصابعها على حاجبيها وجانبي وجهها ، وعدلت أهدابها ، ثم سَرَّحت
شعرها ورضيت عن نفسها ، نظرت في الساعة : السادسة إلا عشر
دقائق . كويس ! ثم رفعت الأغطية عن السرير ، ووضعتها على كرسي في
مدخل البلكون . وأغلقت النور وخرجت من غرفتها وأغلقت الباب خلفها
في حرص شديد ، فكل من في البيت نائمون ، وفي خُفٍّ (شبشب)
بلاستيك بلا نعل سارت على أصابعها إلى المطبخ .

أضاءت النور ونظرت إلى الساعة : ٦ تماماً . جميل جداً . ارتدت
المريلة وربطت شعرها بمنديل ، وبدأ برنامج العمل : فنجان قهوة باللبن
كبير ، وهى جالسة نظرت إلى الحوض : كوم من الأواني والأطباق
والأكواب والفناجين والملاعق والشوك والسكاكين . لا يهم . كل ذلك
يتلاشى بالماء الساخن والصابون السائل والقفاز المطاط في الكفين ،
فعلاً في نصف ساعة كان الحوض المزدوج الأستنلس ستيل قد خلا من
كل ما فيه وتألقت نظافة . الآن ينتقل كل شيء إلى مكانه : الأنية والأطباق
والملاعق والسكاكين وما إليه . نظرة أخرى على الساعة . السابعة إلا
ثلاثاً : عظيم ! كل شيء يجرى بغاية النظام .

* * *

الآن تجلس وتأخذ فنجان القهوة الثانى وتفتح الراديو بصوت خفيض وتسمع القرآن الكريم . فى أثناء ذلك تنظر فى الأجنده لتعرف برنامج اليوم . الأكل اليوم : صينية كوسة بالبشاميل وأرز وصلصة . هذا البيت مدمن أرز وصلصة باللحم المفروم . كل شىء جاهز ، مشتريات اليوم مدونة فى مكانها فى الأجنده : أنبوبتان بوتاجاز وزجاجة زيت وبصل وبرتقال وملح وكبريت .

جرس التليفون يدق فى الصالة . هذه صديقتها أمينة زهدى ، إنها سيدة مرحة خفيفة الظل لا تحمل للدنيا همأ ، إنها صديقة طفولة وصبا ومدرسة . امرأة جميلة فارعة الطول سمراء البشرة . إنها امرأة عملية تعرف ما تريد وتعرف كيف تصل إليه ، لم تنتظر الحب بل تزوجت أول مهندس موسر تقدم لها . لم تفكر فى السعادة بقدر ما فكرت فى الحياة الرخية . نوع الرجل لا يهمها ولا شكله ، وزوجها المهندس إسماعيل حمدى رجل شكله مخيف ، ولكنه مقاول كبير يكسب الآلاف فى الشهر ، وهذا يكفى لكى تحبه . إنها فيلسوفة ولا تفهم لماذا لا بد أن تحب المرأة الرجل لتشعر به : يكفى أن يكون غنياً أو ميسوراً على الأقل ولطيفاً عفيف اللسان كريماً يعطى دون أن يُسأل وصاحب حرفة محترمة اجتماعياً كالطب أو الهندسة . لقد أنجبت منه ولداً واحداً بعد فترة عقم طويلة ، وترهلت مع السنين ولكن ماذا يُهم .

إنها تطلبها فى التليفون فى مثل هذه الساعة من كل يوم لتتحدث على حريتها . حديثها متعة لبطلتنا . نسيت أن أقول لك إنها نادية بدر الدين حسن كريمة الدكتور بدر الدين حسن . وأهم ما ينبغى أن تعرفه عنها قلت لك بعضه فيما سبق بالإضافة إلى أنها ورثت عن أبيها قبل زواجها

٤٠,٠٠٠ جنيهه والفيلا التي تقطن فيها الآن ، والباقي يأتي في غضون الكلام .

صاحبها أمينة زهدى تقصُّ عليها آخر أخبار النادي في خمس دقائق تقول كل شيء . إنها من رائدات النادي ، أما نادية فلا تجد وقتاً للنادي . نادراً ما تذهب . تكفيها صديقتان : أمينة هذه ثم زاهية اسماعيل على صديقة العمر . إنها تعمل سكرتيرة السفير في سفارة أجنبية ، أمينة أيضاً كانت تعمل في نفس السفارة قبل زواجها وكان راتبها أيامها ٢٥٠ جنيهاً في الشهر . إنها تعادل الآن ٧٥٠ جنيهاً . زاهية لا زالت في السفارة رغم زواجها ومرتبها ٦٥٠ جنيهاً . كلتاها تجيد الفرنسية والإنجليزية فهما بنات ذوات وتربية مدارس إنجليزية وفرنسية . أمينة أطف من زاهية . إنها تتكلم في الصباح وتمرُّ على نادية بعد الظهر ، أما زاهية فتمرُّ بعد الظهر فقط . إنها غير سعيدة ، تزوجت مرتين ، وطلَّقتُ مرتين ، وأصبحت بعد هاتين التجربتين فيلسوفة ساخرة مريرة ، وإن لم تهمل أناقتها وصباغة شعرها بالحنة قط ، ولها أسلوب رائع في صبِّ اللعنات على الخلق جميعاً .

تنتهى المكالمة التليفونية السريعة . إنها تليكس الصباح الذي يوقفها على أهم التطورات في دنياها الصغيرة : دنيا النادي والصديقات والعدوات ، السعيدات وغير السعيدات ، والمطلقات وغير المطلقات . وماذا جرى بين فلانة وزوجها ، وماذا فعلت علانة مع زوجها السُّكَّير عاشق الخادمت والمراهقات . إنه مقاول قد الدنيا وإنسان قد البرغوث .

نظرة أخرى على الساعة : الساعة وثلث . هناك عشر دقائق لأخبار

العالم الكبير والجريدة تحت عقب الباب . تنظر فيها : لا شىء : حرب في فلسطين . حرب في الصومال . حرب في المحيط الأطلسي . حرب في أفغانستان . وحرب باردة ساخنة في بولاندا . وحرب في البوسنة والهرسك . الصحف لا تنشر أخباراً هذه الأيام .

* * *

الآن تبدأ أولى معارك اليوم : إيقاظ ابنها طارق . لا بد أن يستيقظ الساعة السابعة والنصف لأن عنده درس باثولوجي في بيت الأستاذ الساعة الثامنة . هذا الأستاذ منشار كهربائي . من الثامنة صباحاً إلى الحادية عشر ليلاً دروس . كل مجموعة عشرة طلاب بمائة جنيه والمذكرة بتسعة جنيهات . متى يمارس هذا الرجل الطب ؟ لا أحد يدري . متى يُدرّس في الكلية لا أحد يدري كذلك .

المهم أن يستيقظ طارق ليحضر الدرس . من حسن الحظ أن بيت الأستاذ قريب من هنا في نفس شارعهم . شارع هارون في الدقي . طارق لا يريد أن يصحو . يقول إنه سينهض ولكنها تعرفه . لا بد أن تلزم إيقاظه في دأب . أخيراً ينهض وهو يسبُّ ويلعن ويقول : إنه لم يكن يريد أن يدخل كلية الزفت هذه ، ولكنه يدخل الحمام مكفهر الوجه منكوش الشعر . إنها لا تدعه في الحمام لأنها تعرف أنه سينام في الحمام . تعاود الطَّرُق على الباب ويعاود السُّباب . أخيراً يأتي إلى المطبخ في نصف ملابس الخروج ليفطر . يشرب فنجان الشاي ويرفض شطيرة الجبن الرومي ويقول إنهم يأكلون أسوأ أكل في الدنيا . إنها لا تلقى بالألماً يقول فهو صبي وإن كان في الحادية والعشرين . بعد أن

يرتدى ثيابه يطلب منها ثلاثة جنيهاً « سلف والله يا ماما » ترفض أن تعطيه . يقول إنها أسوأ أم في الدنيا . أخيراً يفوز بجنيه ونصف وتغلق الباب خلفه .

* * *

الساعة الآن الثامنة . ساعة الصفر للمعركة الثانية من معارك اليوم . معركة إيقاظ زوجها ماجد . إنه ماجد توفيق صادق وكيل الوزارة المساعد بوزارة الاقتصاد . إنه يشطب كلمة المساعد عندما يذكر وظيفته ويحسب أنه وكيل الوزارة الوحيد في الدنيا . إنه رجل لطيف جداً ومهذب جداً وليس فيه إلا عيبان : الأول أنه لا يفهم شيئاً في الاقتصاد ، والثاني أنه يحب النوم ولا ينهض من فراشه إلا بمعركة تستخدم نادية فيها كل أساليب العنف .

- قُمْ يا ماجد .. صباح الخير أولاً ..

- الساعة كام .

- الساعة ثمانية .

- طيب . كمان نصف ساعة .

- ولا عشر دقائق . الساعة التاسعة عندك اجتماع خطة مع الوكيل الأول .

ويقول وهو يتقلب :

- نسيت أن أقول لك إنهم أجَّلوه .

- غير صحيح .. بالله قُمْ .

وترفع الأغطية عنه ويبدو بالبيجاما ، ويقول في غضب :

- يانادية حرام عليك .. ماذا ينوبك من هذه القسوة .. هل نحن
عسكر في قشلاق .. حتى العساكر تنتهى مدة خدمتهم ، أما أنا
فعسكري تحت السلاح من يوم أن تزوجنا .

- قم يا ماجد .. بلاش كسل .

- ستقوم ..

وتفتح النافذة على مصراعيها فيدخل الهواء وينهض ماجد يسُبُّ
ويلعن ويمضى إلى الحمام . هنا تتركه لأنه لا ينام في الحمام . تسرع
الآن إلى المطبخ وتُعدُّ الإفطار لسعادة البيه الوكيل . إنه يحب الأكل . إنها
تعد له إفطاره : فول بالسمن وجبن وزيتون وشاى . إنه إفطار ضخم
مكلف ، ولكنه يعدل مزاج ماجد . بعد أن يملأ بطنه يتحول إلى إنسان
لطيف أمير ويحس أنه وكيل وزارة أول بل وزير .

وبينما يتناول الأب إفطاره تأتي سوزان ابنتهم . إنها في العشرين
من عمرها وأمها تقول أنها زى القمر ، وهى قمر فعلاً . جميلة ورقيقة
وقارئة وخفيفة الظل ، إنها الوحيدة بعد أمها في هذا البيت التى لا تكلف
أمها عناء . تستيقظ من تلقاء نفسها وتعد نفسها وتلبس وتسرع لتفطر
مع « بابى » لأن « بابا » سيأخذها معه إلى الكلية . يُنزلها هناك ثم
يمضى إلى الوزارة بسيارة الوزارة .

جرس الخدم يدق . هذا هو بسيونى سائق سيارة الوكيل ، تفتح له

سوزان . يصبَح ويدعوا للست هانم بالصحة وطول العمر . لكل دعوة من هذه ثمن : الصحة في مقابل كوب شاي بأربع قطع من السكر ، وطول العمر في مقابل قطعة من الكيك من الست هانم . يأخذ الكوب والكيك ويغلق باب الخدم حيث ينتظر سيادة الوكيل .

بعد دقائق : الثامنة والنصف تقريباً يكون الأب والبنت والسائق قد مضوا . قبل أن تخرج سوزان تقول لأمها :

- تمرين على في الكلية الساعة ١١ وأنتِ راجعة يا ماما ؟

- طبعاً يا سوزان ..

وكانت تحرص على أن تأخذ ابنتها بنفسها من الكلية بسيارتها الصغيرة . إنها لا تحب أن تترك ابنتها تتسكع في الكلية بعد الدروس . وهى - الأم نادية هانم - لا يعجبها طلبة اليوم ، ولا تحتمل أن ترى ابنتها مع شاب « مش قد كده » .. مرة رأتها تتسامر مع شاب .

قالت لها :

- مين ده ؟!

- ده زميل في الكلية .

- طبعاً زميل ... وهل سيكون فرأشاً ، أقصد ماذا يدرس ؟

- معنا في قسم اللغة الإنجليزية . إنه يسبقنى بسنة .

- واسمه .

- عزت الشندويل .

- مافيش طالب كويس ابن ناس وله مستقبل يبقى اسمه
الشندويل .

- يا ماما حرام عليك ... اسمه كده .. قصدى اسم أبوه .

- مادام شندويل يبقى ماينفعناش ... لا يوجد رجل له مكانة اسمه
الشندويل .

- ليه بقى ياماما . طيب وإيه رأيك فى المنفلوطى .

- وإيه يعنى المنفلوطى ؟ راجل قضى عمره يبكى ثم عبأ
« عبراته » فى قراطيس سماها كتباً وباعها لهواة الدموع .

- مالكيش حق ياماما ... العبرات كتاب عظيم .

- لا يمكن أن تكون هناك عبرات عظيمة .. العبرات دموع والدموع
كلها واحد ..

- يعنى من الذى يعجبك فى الأدباء ؟

- أولاً تسيبى الشندويل هذا .

- سبته ... إنه ليس صديقاً ... من إذن يعجبك من الأدباء ؟

- أنت تعرفين ..

- طبعاً توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وعبد القدوس ... انظرى
مثلاً إلى أسمائهم .

- هل الأدباء بالاسم ؟

- لا أدرى ولكن « الحلو » يبقى حلو من كله : اسمه وشكله وكتابته
ولبسه ... ولأيه يا سوزان ؟

إنها عائلة مثقفة ميسورة نشيطة صاعدة . ولكن الدينامو هنا هي الأم .. هي نادية . إنها تهلك نفسها في سبيل بيتها . تركت وظيفتها في السفارة بعد أن أنجبت طارق وسوزان . كانت ترى أن الأولاد والبيت أهم . هنا كانت تختلف اختلافاً بيناً مع صديقتها أمينة زهدى وزاهية إسماعيل . كان هذا الاختلاف مدار جدل طويل بين الصديقات . وكان رابطة تجمع بينهن . لأن الناس تتجمع وتتحابُّ بالاختلاف أكثر مما تتحاب بالتشابه .

وفي عودة الأم مع ابنتها من الجامعة يشترتان الفاكهة وبقية لوازم البيت . وتكون نادية قبل خروجها للعودة بابنتها قد أعدت ثلاثة أرباع الطعام . بعد أن تعودان تعملان معاً في المطبخ . في هذه الأثناء أيضاً يكون أحمد وهو الابن الأصغر قد صبحا وغسل وجهه وأفطر بما بقي من أبيه وأخته . اليوم يوم الأحد ولا مدرسة وراءه . لهذا تركته أمه ينام ملء عينيه . إنه في مدرسة إنجليزية تكلف العائلة فوق المائة والخمسين جنيهاً في الشهر .

* * *

الساعة الثانية بعد الظهر من نفس اليوم .

البيت هادئ . كل شيء فيه مستقر في موضعه . عم إمام يفرغ الآن من غسيل الحمام الصغير . هذا البيت فيه حمامان كاملان . واحد كبير للآب والأم وابنتهما سوزان . الثاني للولدين طارق وأحمد . الأم جهزت هذا الحمام الثاني على نفقتها . في الأصل كان مجرد تواليت . أنفقت من

مالها أَلْفَى جنيه لكى يكون هناك حمام كامل من آخر طراز لطارق وأحمد . عم إمام يأتى هنا ثلاث ساعات كل يوم لتنظيف النوافذ والسجاجيد والحمامات ويخدم الأسرة على الغداء سفرجياً . ثم يأخذ ما تيسر من الطعام والأشياء ويمضى . إنه رجل نظيف جداً وأمين جداً وهو فى السبعين من عمره . هذا الصنف من المساعدين فى البيت لا يقل عمر الواحد منهم اليوم عن الستين سنة . الجيل الجديد من الطباخين والسائقين والشغالين فى البيوت جيل قطاع طرق . إنهم لا يجيدون شيئاً فى البيت ولكنهم يطلبون أجوراً لا تقل عن مائة جنيه ليشتروا البديل الجينز ويسرحوا شعورهم افرد - لوك ويدخنوا السجائر الأمريكية والساعة المذهبة فى اليد ، وكذلك الكاسيت وفيه شرائط هزليات مُقَرَّزَةٌ أَلْفها وأخرجها ممثلون كان ينبغي أن يكونوا شغالين فى البيوت ولكنهم ضلوا طريقهم ودخلوا المسرح ، لأن المسرح نفسه ليس مسرحاً وإنما هو جراج حولوه إلى مسرح وسموه مسرح باولى يريدون مسافكت باولى حى العاهرات فى هامبورج . المسرح سينما فى نفس الوقت تعرض أفلام الجنس والعنف والكاراتيه والكونغوفو .

الأم نادية هانم جالسة فى حجرة ابنتها سوزان والباب مغلق لأنهما تُجَرَّبان فستاناً جديداً اشترته سوزان من بوتيك صغير . الأم والبنت تتسامران والتفاهم بينهما كامل . الأم تستعيد فى ابنتها ذكريات ما مضى من شباب يكاد الأب والأولاد يستنفدونه ، والبنت ترى فى أمها صورة حلوة ترسم لها طريق الغد .

عم إمام فى المطبخ ، لقد فرغ من كل شىء وأعدَّ السَّفرة وجلس يقرأ مجلة ، طارق يعود من كلية الطب . ينادى فلا يرد عليه أحد . يلقى

الكتب على كرسى وثير في الصالة ويدخل المطبخ فيرى عم إمام فيقول
غاضباً:

- ما هذا يا عم إمام؟! نحن نموت من الجوع وأنت جالس تقرأ
المجلة.

- لم أنتبه لدخولك يا طارق بك .

- الدكتور طارق ..

- ولا مؤاخذه الدكتور طارق ...

- أنا هاموت من الجوع ... هات الأكل ..

- أقول لنادية هانم ... اجلس إلى المائدة وفي دقائق يأتيك الطعام .

ويقول طارق غاضباً :

- كل حاجة نادية هانم نادية هانم ... أليست في هذا البيت إلا

ماما ... أقول لك إننى جائع تقول لى إنك تستأذن ماما .

- وماذا في ذلك يا دكتور طارق .. أليست ست البيت ولا بد أن

استأذنها قبل أن أقدم الطعام ... هكذا نحن من عشر سنوات .

- لكن الآن هناك شىء جديد .. كنا من قبل أولاداً ولكننى اليوم

دكتور ومن حقى أن أأمر في هذا البيت فأطاع .

وعلى الصوت العالى تأتي نادية هانم ومن خلفها سوزان .

- إيه يا عم إمام .. إيه الحكاية؟

وبهدوء الرجل الطيب الحسن التربية يقول إمام :

- لا شىء يا ست هانم ... الدكتور طارق يطلب الطعام وسأقدمه له ... أحببت أن أستأذنك فقط .

- طيب ... لا عليك يا طارق ، بمجرد أن تدخل غرفتك وتُغَيِّر ملابسك وتغسل يديك يكون الطعام على المائدة ... أرجو كذلك أن يصل أبوك الآن ... نَادِ أحمد من غرفته يا سوزان .
ويقول طارق غاضباً :

- قلت لك ياماما إننى جائع وعندى ماتش تنس في النادى الساعة الثالثة والنصف ... أريد أن أكل أى شىء ، ثم أستريح في غرفتى نصف ساعة ثم أخرج .

- يا طارق هذا البيت فيه نظام .. كلها دقائق ويأتى أبوك ونجلس إلى المائدة كعادتنا .

- قلت : إننى سأكل الآن وسأكل الآن ... زهقنا من العبودية لنظامك .. أنا الآن دكتور ... عارفه يعنى إيه دكتور ؟

- طبعاً عارفه ... لهذا أطلب شيئاً من النظام .. وهل هناك دكتور يجلس إلى المائدة دون أن يغسل يديه ؟

- أى إنك تُصَرِّينَ على أن تُعَلِّمينى ..

- ماذا جرى لك يا طارق ... خرجت من هنا في الصباح سعيداً فماذا جرى لك ؟

- الذى جرى لى أننى اتهازت ... نصف ساعة وأنا أنتظر الأوتوبيس ، وبعد ذلك انحسرت .. فى تاكسى مع « شوية فلاحين » .. ووصلت الكلية تعبان وقرفان ...

- ألم يكن عندك درس خصوصى عند أستاذ الباثولوجى ؟
- حضرته ترك لنا ورقة تقول إنه يعطى الدرس اليوم بعد الظهر فى
غرفة الأطباء خارج عنبر ٢٢ جراحة فى القصر الجديد ... أنا زهقت من
هذه المرمطة ...

ويأتى الأب ويدهش لهذا النقاش الحاد .

- إيه ... فيه إيه يا نادية ؟

- شوف ابنك طارق ماذا به ..

ويقول طارق :

- يا بابا أنا لم أعد أحتمل ذلك ... كل يوم مرمطة فى المواصلات وكل
أصحابى عندهم عربيات . لا يوجد طالب طب بدون سيارة إلا أنا .

- طيب .. معلىش يا طارق ... هدىء أعصابك . وسنتحدث على
الطعام بهدوء ... دقائق أُغَيَّر فيها ملابسى وأغسل يدى ووجهى ثم
نتغدى .. أنا أيضاً جائع جداً .

ويجلسون إلى المائدة وعم إمام يقوم بدور السفرجى . يغرف الطبق
الأول : أرز بالصلصة ... طارق لا يأكل . الأم تلاحظ ذلك . الأب يأكل
بشهية ويداعب سوزان وأحمد ويقص شيئاً مما جرى اليوم فى
الوزارة . ينتهى الطبق الأول ثم يأتى الثانى ، ويقول طارق غاضباً :

- قلت ألف مرة إننى لا أحب هذه الكوسة بالبشاميل فى الفرن ..

وتقول نادية :

- ليه .. مالها يا طارق؟

- قصدي أننا الآن لنا عشرون سنة نأكل نفس الطعام في نفس اليوم ... في البيوت الأخرى الأكل أشكال وألوان .. أول أمس تغديتُ عند سامح نور .. ليست عندكم فكرة عن الأكل ... ومع ذلك فأبوه مدير عام لا وكيل وزارة .

ويقول الأب مسترضياً :

- وليه تزعل يا دكتور طارق ... نعمل ما تريد ... كل ما تريد .. لا بركة لنا إلا أنت ... ما رأيك يا نادية ؟

وتقول نادية في حَزْمٍ وهدوء :

- لا .. هذا ليس رأيي ... نحن نقدم هنا أحسن طعام نستطيع تقديمه .. ما له أكل اليوم؟!

ويقول طارق غاضباً :

- لنا عشرون سنة نأكله ..

- وثلاثون أيضاً .. هذا أحسن وأفضل ما نستطيع .

- واشمعنا سامح نور ..

- لا أدري ماذا يفعلون في بيت سامح نور .

ويقول الأب :

- يعنى أبوه مش حاجة ... مدير عام في شركة قطاع عام ... ماذا عندهم أحسن منا ؟

ويقول طارق :

— عندهم يا بابا أحسن منا ألف مرة ... عندهم شغال وطباخ
وسفرجى وسامح عنده سيارة وأخته سوسن عندها سيارة ، غير
سيارة نور بك سلامة وسيارة ست هانم .

ويقول الأب مواصلاً استرضاء ابنه :

— يا طارق كل إنسان يعمل ما يستطيع ... لا أدري ماذا يعمل نور
بك سلامة ... يمكن عنده تجارة أو حاجة ..

وتقول سوزان :

— نور سلامة هذا حرامى ، وابنته سوسن فى كلية الاقتصاد ... إنها
تلبس ملابس أميرة وسيارة شركة أبيها تنتظرها كل يوم على الباب ..
وكل يومين تأتى وهى تقول أنها فى انتظار سيارة آخر طراز ..

وينهر طارق أخته ويقول :

— اسكتى أنتِ يا ست سوزان .. أنا لا يهمنى إن كان نور سلامة
حرامى أو تاجر مخدرات ، المهم أن ابنه عنده سيارة وينفق بغير حساب
وبيتهم سراية .

وتقول الأم :

— أما أنا فيُهمنى الألى يكون أبوك لصاً أو تاجر مخدرات ، نحن عائلة
محترمة تنفق على قدر ما تستطيع ، ونحن ليس لدينا إلا راتب ماجد .
وهو راتب محترم .

فيرد طارق :

— لهذا نحن فقراء ..

تقول الأم :

- نحن لسنا فقراء .. نحن ناس محترمون ..

- ونور سلامة ! ليس محترماً ... إنه محترم أكثر منا ألف مرة ،
والشركة تخصص له سيارتين وسائقين .

ويرد أحمد الصغير :

- وابنهم خالد عنده موتوسيكل .

وتقول الأم :

- يعنى ماذا تريد أن تقول يا طارق ؟

- أريد أن أقول إنه عيب علينا أن نعيش في هذا المستوى البسيط ..
ما معنى أن أنتظر الأتوبيس كل يوم ساعة في الذهاب وساعة في
المجىء .. وأخيراً أركب تاكسى مع ناس زى الهم .. هذه ليست حياة
لدكتور .

وتقول سوزان :

- لست بعد دكتوراً . أنت يادوبك في سنة ثانية طب ... وناجح دايماً
بمقبول ..

ويقول طارق :

- أنت تسكت بنتك يابابا ... هذه الطفلة لا يحق لها التدخل في
الحديث عندما نتكلم .

وتقول الأم :

- شوف يا طارق .. لقد طوّلت بالى عليك جداً .. وأنت ينبغي أن تفهم أنك واحد من أسرة ، واحد من خمسة ، ونحن كلنا نتعاون لكى نشق طريقنا ولكى نعاونكم على عمل مستقبل لكم .. أنت تعرف كم تَعَبَ أبوك بدخولك كلية الطب ..

- أنا لم أَرُدْ أن أدخل الطب .. دخلت هذه الكلية من أجلكم .. ومع ذلك فأنا الآن أملككم الوحيد فى حياة أفضل .. وعندما أخرج سأعطيكم كل ما تريدون .

ويقول الأب :

- إن شاء الله يا طارق .. ربنا يسمع منك .

وتقول الأم :

- يعنى إيه يا ماجد أن طارق بعد أن يتخرج سينفق علينا ؟

- يعنى سيساعدنا .

- لا يا ماجد ... طارق دخل كلية الطب لنفسه وسيخرج لنفسه ، وهذه العائلة لن تأخذ منه مليماً . نحن نُربِّيه وننفق عليه لأن هذا حقه علينا ، ولكنه ليس مُلزماً بالإنفاق علينا .. وَخُدْ نقودك لنفسك يا سى طارق ، المهم أن تنجح .

- كيف أنجح وأنا أعيش فى هذه البهدلة كل يوم .. إن كل أصحابى يُعَيِّرُونى .

- يُعَيِّرُونَكَ بماذا ؟

- بأننى فقير يا ماما .. هذه هى الحقيقة .. وأنتم عندكم الفلوس

وتستطيعون شراء سيارة لى .. كل زملائى عندهم سيارات .. العائلة التى فيها طالب طب تقوم الأسرة كلها بخدمته ، وصاحبى إبراهيم زكى تقف أمه على رأسه وهو يأكل .

وتقول الام :

- لأنها تنتظر أن ينفق عليها عندما يتخرج ، أما أنت فلن تنفق على شيئاً .. عندما تصبح طبيباً ستكون طبيياً لنفسك . لهذا لن أقف على رأسك وأنت تأكل أبداً .. إذا كنت تريد أن تلبس ست الحبايب أسود فى أسود وتلف رأسها بالطرحة وتبكى عند يَدَى ابنها فذلك مستحيل .

ويقول الابن :

- كفاية عليكِ الزواق والكوافيرات .

وتغضب الام وتقول وهى تضبط أعصابها :

- شوف يا طارق ، أنا أقوم بواجبكم بأقصى ما أستطيع . من الخامسة والنصف صباحاً وأنا على قدمى أعمل من أجلكم ، أطبخ وأغسل دون أن أشكو بكلمة ، بل أنا سعيدة بذلك . وبعد أن أتيت أنت وسوزان تركت عملى ومرتبى الكبير لكى أتفرغ لكم ، وأم صاحبك إبراهيم زكى لم تترك عملها بالمدرسة حتى أحيكت للمعاش . وبتدليل ابنها وإذلالها نفسها جعلت بيتها بيت متسولين ، وأبوه يسير فى الشوارع ببذلة مغطاة بالبقع .. الوحيد الذى يعيش عندهم هو صاحبك إبراهيم الذى يمتص دم أمه وأبيه وإخوته لأنه فى كلية الطب وسيصبح طبيباً .. إبراهيم هذا عندما يتخرج سيكون عليه أن يكمل تعليم إخوته الأربعة . وسيدبح المرضى فى هذا السبيل ... نحن لسنا هكذا ، نحن

نحترم أنفسنا لأننا نريد أن نُعلِّم أولادنا احترام النفس ... أبوك رجل شريف ولا يستطيع أبداً أن يعمل عمل نور سلامة ..

يقول طارق محتجاً :

- أنا لا يهمنى ما تعملون .. يهمنى أن أكون مثل زملائي .. أريد سيارة ..

- السيارة تشتريها عندما تتخرج ، من مالك أنت .

- طيب ، وماذا تعملون إذا أنا توقفت عن الذهاب إلى كلية الطب .

- إذا ذهبت فأنت تذهب لنفسك ، وإذا لم تذهب فأنت الجانى على نفسك ... ونحن هنا نقوم بكل ما نستطيع من أجلك . أكثر من هذا لن نعمل ، ولن نذل أنفسنا بين يديك . ولن يسرق أبوك لتركب سيارة .

وتتعالى الأصوات وتتداخل ويتحول الأمر إلى شجار حقيقى بين الأم والابن ، وأحمد ينضم لأخيه وسوزان إلى أمها ، والأب يضيع فى التوفيق بينهما ، ويصل الأمر إلى درجة الدقِّ على المنضدة باليد والأم لا تتراجع أبداً والابن طارق يتناول على أبيه .

وأخيراً تنفجر سوزان باكياً :

- كفاية .. كفاية بقى .. حرام عليكم .. دى مش عيشة ..

ويقول طارق :

- طبعاً مش عيشة .. ما دام ست ماما عاوزه تحكمننا تبقى مش عيشة ... ابنها على وشك أن يصبح طبيباً وهى تعامله كأنه ولد ... وأنا قلت: إننى أريد سيارة ولا بد أن تشتروا لى سيارة ...

لم تكن السيدة نادية بدر الدين حسن من الطراز الذى ينحنى للعواصف . بل كانت تقف صامدة في وجه العاصفة حتى تمر . ولم يكن ذلك عناداً بل كان احتراماً للنفس . وعندما تركت وظيفتها في السفارة الأجنبية لتعتنى بتربية أولادها كانت تعرف مقدار التضحية التى قامت بها . ولكنها كانت تعرف أيضاً أن تربية أولادها أهم من كل وظيفة وأعز من أى مال ، لأن الوظيفة تُعوّض أما أولاد من غير تربية فخسارة لا تعوض أبداً .

وقد شعرت بألم بالغ عندما تناول عليها ابنها طارق وتحداها وقال : إنها لا يمكن أن تحكم الأسرة وأنه يريد سيارة ، ولا بد أن تشتري له الأسرة سيارة . لقد تصاعدت أبخرة « كلية الطب » إلى دماغه وجعلته يتصور أنه من الآن فصاعداً نجم الأسرة وأملها في الحياة .

ومرت أيام هدأت فيها العاصفة . وواصلت نادية عملها كعادتها بنظام وفهم وإخلاص . كانت تفرغ من عملها كله في الرابعة بعد الظهر ، بعد ذلك تجلس في الصالون لتشرب الشاي وتستريح وتقرأ الصحف وتستقبل صديقاتها ، وربما شهدت بعض أشياء في التليفزيون . هنا كانت تلبس ملابس جميلة أنيقة وتمشط شعرها وتزِين نفسها بحسب لتستمتع بوجودها كامرأة وإلى جانبها دائماً ابنتها سوزان طالبة قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب . كانت حبيبة أمها وسلوتها في الحياة .

زارتها صديقتها زاهية إسماعيل على ، وزاهية من أسرة غنية وهي نموذج للألوف من نساء مصر . تزوجت الرجل الذي اختارته لها أسرتها والظروف الاجتماعية هذه ، فهو طبيب ميسور الحال وربما كان نحيفاً وزاهية عندها سيارة وزوجها له سيارة وابنها الكبير وهو ملازم أول في الجيش عنده سيارة . والأسرة كلها من هواة النادي . الإيراد كبير والزوج طبيب القلب وافر الكسب والزوجة زاهية لطيفة جداً ، ويمكن أن توصف بأنها جميلة فلامحها صغيرة متناسقة ، وهي سميئة بعض الشيء ، وزوجها الدكتور عبد الرحمن يعتبر سمنتها من نعم الله الكبرى عليه ...

قالت زاهية وهي تضحك وتتناول قطعة من الكيك :

- وماله يا نادية ... هاتوا له عربية ... طارق باسم الله ما شاء الله في سنة ثانية طب ويستحق سيارة ..

- من أين يا زاهية .. أنتِ تعرفين الزير وغطاه ..

وبأسلوبها الذي يستسهل كل شيء [لأن كل حياتها سهلة] تقول :

- يا نادية هذه ليست مشكلة ... هناك سيارات صغيرة بخمسة آلاف جنيه ... اشتروا له واحدة ... كمان حرام إن طارق ابنك يتمرط في المواصلات ...

- يا زاهية أنتِ تعرفين أحوالنا أكثر منى ... هل يخدعك أن ماجد زوجي وكيل وزارة .. إن كل مرتبه لا يصل إلى ٣٥٠ جنيه .. ليته كان

طبيباً مثل الدكتور عبد الرحمن ... ثم إن المسألة ليست مسألة بهدلة في المواصلات ... إنها مسألة تربية . هؤلاء الشبان سيصبحون أطباء ويخدمون البلد ، وعليهم أن يعرفوا بلدهم . وهل هو عيب أن يركب المواصلات .

- برضه مش قيمة يا نادية والولد حكيم وابن ناس كبار ..

- لا يا زاهية ... نحن لسنا كباراً ... نحن ناس نكافح لكى نربى هؤلاء الأولاد ... إننا نفسدهم إذا اشترينا لهم سيارات ، لأنهم بهذا يفقدون الإحساس بالأشياء وقيمتها ... إذا كان طارق يريد سيارة فلينتظر حتى يشتريها من كسبه ، وصدقيني إننا لا نملك مالاً نشترى به سيارة له .

وتأتى صديقتها الثانية أمينة زهدى ، إنها زميلة دراسة ، وقد تزوجت دون حب أو حتى ميل ، إنها امرأة عملية . زوجها إسماعيل حمدى مهندس ومقاول وعنده مال لا بأس به ، ولكنها لم تفرط قط في وظيفتها فى السفارة . إن راتبها الآن يصل إلى ٧٥٠ جنيهاً فهى سكرتيرة الملحق التجارى فى السفارة ... وهى لم تنجب ولكن ذلك لا يهمها . وزوجها حاول أن يتزوج غيرها لينجب ، وتبين له فى النهاية أنه لن ينجب فعاد إليها . ولم تهتم هى لذلك . ولم تغضب حين تزوج عليها ، ولا هى فرحت عندما عاد إليها ، ورأيها أن الرجال كلهم طراز واحد ... ليس فيهم واحد يستحق دموع امرأة . وتقول :

- نادية عندها حق . كل أولاد هذه الأيام يريدون أن يكونوا أسياد العائلة ، نتعب ونشقى فى تربيتهم وتعليمهم حتى إذا دخل الواحد منهم

الجامعة حسب أنه أصبح سيد البيت يأمر وينهى . إنهم ينسون أنهم
ملهما يكبرون فهم يظلون أولادنا ولنا عليهم على الأقل حق الاحترام .
ما دُمنا نحن نحترمهم فلماذا لا يحترمونا هم . إننى فعلاً سعيدة جداً
فليس لى أولاد يعذبوننى ، ونادية — يا عيني — تصحو من الفجر لتعمل
لهم كل شىء . ثم يجيء هذا المفعوص طارق ويتأمر ويحسب نفسه
ملك البيت ويطلب سيارة ... ومن أين تأتيه نادية بالسيارة ؟

وتقول زاهية إسماعيل على :

— معلش يا أمينة ... إنهم أولادنا . وليس لنا سواهم .

وتقول نادية : هذا هو الخطأ يا زاهية : أن نقول أنه ليس لنا
سواهم . لدينا أنفسنا يا زاهية ، نحن نربى وننفق ونخدم ، ولكن ليس
معنى هذا أننا لا شىء إلى جانب الأولاد ... إن لنا الحق فى أن نعيش
حياتنا ، وخاصة الأمهات ، حرام أن نضحى بهن ، وأن تتحول الأم إلى
خادمة أو مُربّية لأولادها ... ماذا تعنين يا نادية .. أنتِ عندك ثلاثة أولاد
فهل معنى ذلك أن يركبوك وتهملى نفسك وتتحولى إلى امرأة عجوز
تلبس الأسود وتلف رأسها بالطرحة وتقضى عمرك خادمة للأولاد .

وتقول زاهية :

— يعنى ... برضه عندما يكبرون سيسألون عنا .. وهل لنا بركة
غيرهم .

— حقاً ليس لنا بركة غيرهم ، ولكننا لا ينبغى أن ننتظر أن يسألوا
عنا عندما نكبر . من الخطأ أن نربى الأولاد لكى نصبح عبثاً على أكتافهم
عندما يكبرون ... نُربّيهم ونُعَلِّمهم حتى إذا كبروا وساروا فى طريقهم

ظللنا نحن محترمين ، وفي غنى عن مساعدة الأولاد ، إننى أرى أننا نحن السيدات على خطأ عندما نفكر هذا التفكير .. إننا نفقد شخصيتنا واحترامنا بل نفقد دورنا كربات بيوت ومديرات أسر ، فالأولاد يحسبون أنهم سيردون لنا ما ننفق عليهم عندما نكبر ونقعد عن العمل أنا شخصياً لا أريد من أولادى شيئاً ... كل ما أتمناه أن يكبروا ويشقوا طريقهم ويستقلوا بحياتهم ثم يدعوننا أنا وماجد نعيش حياتنا عندما تتقدم بنا السن .. ما أجمل أن نفرغ من تربية الأولاد ونستقر فى بيوتنا ونتأملهم - كل منهم فى بيته وطريقه .. يزوروننا ونزورهم وكل منا مستقل بحياته ... لقد رأيت من أيام صديقتنا بدرية عبد السلام التى كانت معنا فى المدرسة الثانوية ... المسكينة ترهلت وتلفعت بالأسود وحجت على نفقة أبنائها وأصبحت الحاجة بدرية ... وهى الآن تقوم بتربية أولاد أولادها .. ثلاثة منهم عندهم أطفال ، وكلهم يأتون لأهمم بالأطفال طوال النهار ... والحاجة المسكينة فقدت حياتها تماماً ... لن أرضى بهذا المصير قط ...

وتقول أمينة زهدى :

- براقو يا نادية ... عندك حق ... وماجد بك لا بد أن يقف إلى جانبك .

- ماجد ياستى فرحان بأن ابنه دخل كلية الطب ... وحضرته فاكر أن طارق لما يكبر ويفتح عيادة سينفق علينا ... ولهذا فهو لا يرفض له طلب ..

- والسيارة .. هل هو مستعد لأن يشتري له سيارة ؟

– من أين ... إن ماجد مرتبه محدود ، ونحن ناس نعيش بذمة
وضمير ، ولهذا فليس لدينا فائض نشترى به سيارات للأولاد ...
وطارق ينظر لسامح ابن نور سلامة ويقول أن عندهم سيارات وخدم
وفلوس كثير .

وتقول أمينة زهدى :

– وأين نحن وأين نور سلامة ... هذا رجل يلعب بالفلوس ، ولا
يدرى أحد من أين يأتى بها . وزوجته التى كانت من عشر سنوات
لا تملك إلا حثة جلابية أصبحت اليوم تركب السيارة وتسافر إلى
أوروبا تشتترى فساتين وعطور .

وتقول نادية :

– أهو طارق بقى ... يريد أن يصبح أبوه مثل نور سلامة وأن
أصبح أنا مثل جمالات صالح امرأة نور سلامة ..

وتقول زاهية إسماعيل :

– ياندامة وهل هذا معقول ... نادية بدر الدين التى كانت من
عشرين سنة سكرتيرة سفارة ومتعلمة فى أحسن مدارس تصبح مثل
جمالات صالح .

وتقول أمينة زهدى :

– صدقيني يا زاهية .. الأولاد لا يهمهم أمر الآباء والأمهات .. المهم
أن يحصلوا على المال ومظاهر الترف ... والولد لا يهمله ماذا يفعل أبوه ،
وماذا تفعل أمه أو أخته ... المهم أن تكون له سيارة ، وأن يكون جيبه
عامراً بالمال .

وتنظر زاهية في ساعتها وتنهض للانصراف إلى بيتها لأن الأولاد
كما تقول بحاجة إليها وتنصرف ، وتبقى أمينة مع نادية فتقول لها :

- نادية ... أريد أن أكلّمك في مسألة أظن أنها تهّمك ... لقد انتظرت
حتى تنصرف زاهية لكي نتحدث في هدوء ... الآن كبر أولادك ولم يعودوا
محتاجين إليك كما كان الحال قبلاً ... ما رأيك في أن تشتغلي ؟

- وماذا أشتغل الآن .

- عندي لك عمل عظيم .

- إذا كان هناك عمل لائق فلا مانع عندي من التفكير ... صدقيني
يا أمينة . لقد نفذ كل ما كنت ادخرته من سنوات العمل .. أنفقتة على
البيت وماجد والأولاد ..

- وهل شكر لك أحد منهم ذلك ؟

- ها أنت ترين .

- إذن فاسمعي مني ... السفارة التي أعمل فيها أنشأت دار ضيافة
للفنيين والأساتذة والأخصائيين ... أجروا بيتاً عظيماً في المهندسين ،
سبعة أدوار ، مدير هذا البيت رجل أمريكي عظيم اسمه المستر ادواردز ،
وهو في حاجة إلى مشرفة على هذا البيت ... شيء يسمونه هاوس كبير ...
واحدة محترمة من عيلة محترمة تعرف شئون البيت وتدبير المنازل
وتعرف كيف تدير الشغالين والطباخين وتأخذ عهدة البيت ... وظيفة
كبيرة جداً مرتبها حاجة زى ٥٠٠ جنيه .

- ٥٠٠ جنيه !

- آه والله يا نادية .. وليس هناك إلا أنت لمثل هذا العمل .. أنت تعرفين لغات وعندك شخصية وخبرة ، ولا زلت شابة أنيقة وشيك .

- هل أنت تسخرين منى ؟

- لا والله يا نادية .. أنت باسم الله ما شاء الله لا زلت كما كنا في المدرسة ... وعندما كُلمنى فى ذلك السفير والمستر ادواردز رشحتك لهم . وهم ينتظرون ردك ..

- يا أمينة شغل إيه .. أعود فأعمل من جديد .

- طبعاً يا نادية .. تعودين للعمل .. هذا العمل لا يصلح له إلا أنت وتفكر نادية لحظة ثم تقول :

- أفكر يا أمينة .. ولكن لماذا لا تأخذين أنت هذا العمل ؟

- لأننى سعيدة جداً بعملى فى السفارة . ومن هذا الشهر أنا مديرة مكتب السفير ومرتبى الآن ٧٥٠ جنيهاً .

- براقو عليكى يا أمينة .. والله أنت التى تفوقت علينا كلنا .

- أتدرين لماذا ؟

- لأنك ليس لك إلا ولد واحد وهو الآن فى أمريكا .

- بالضبط .. ليس هناك عفاريت يريدون أن أكون خادمة لهم ..

وإسماعيل عقل أخيراً ولا يفكر فى أولاد تانى .. ونحن نعيش فى هدوء ..

وبعد لحظة صمت تقول :

- هه يا نادية .. ماذا تقولين .

- أفكر .. وأنظر ماذا أفعل مع الأولاد ..

- إذن فعندك أسبوع للتفكير .. المستر ادواردز سافر إلى أوروبا ويعود بعد أسبوع .. وهو ينتظر منى رداً عندما يعود .

- وهل وظيفة كهذه ستنتظرنى؟

- نعم .. المهم أن تقررى أنت.

* * *

بعد ظهر اليوم التالى لهذا الحديث كانت نادية جالسة إلى مكتبها في حجرتها . إنها تدون حساباتها . إن إيراد الأسرة قليل ونفقاتها بلا نهاية ، والموضوع لا يحتاج إلى تدبير منزلى بل إلى تدبير سحرى .

إنها عملية مستحيلة : أن تجمع طرفى الشهر في حدود مرتب الزوج . إنها تكتب كل مليم تنفقه وتحسب حساب كل رغيف خبز يدخل البيت . لا أحد يعلم ذلك ، وعم إمام وحده يتقاضى خمسة وسبعين جنيهاً فى الشهر ، ويأخذ معه لعياله بقية الطعام . إنه جالس فى المطبخ ينتظر طارق لكى يقدم له طعام الغداء . أخيراً وعندما دقت الثالثة والنصف رتب كل شىء على منضدة الطعام وغطاه واسـتأذن من نادية وانصرف . بعد نصف ساعة أتى طارق . قال : إنه كان فى درس باثولوجى خاص ، وأول ما وصل نادى أمه . وضعت القلم وخلعت النظارة ومضت فوضعت له الطعام وهى تسأله فى رقة ومحبة عما عمل ولماذا تأخر . إنه لا يرد ، إنه غاضب ، ينظر إلى الطعام ولا يعجبه . يشرب كوب ماء وينظر إلى أمه ويقول :

- يا ماما أنتِ تعرفين أننى لا أحب البفتيك جافاً هكذا .. وهذا النوع من المكرونة لا يعجبنى .

ونادية لا ترد . إنها تواصل وضع الطعام والشاب يزداد غضباً ثم يقول :

- إذا كان هذا هو كل الطعام فأنا لن أكل .

وتقول الام فى رفق :

- يا طارق ، هذا أقصى ما أستطيع أن أعمل ... وهذا طعام جيد ولا أدرى لماذا لا يعجبك ..

- إنه فقير يا ماما .. فقير .. أتعرفين ما معنى فقير ، كنت أستطيع أن أتغدى عند صديقى عصام عاشور ... أتعرفين ماذا يأكلون عند عصام عاشور ؟ أصناف وألوان وسفرجى وشغالة ...

- هذا كل ما عندنا يا طارق .. والأكل أمامك وأنا ذاهبة إلى غرفتى ..

- وأين عم إمام ؟

- انتظرك إلى الساعة الثالثة والنصف ثم مضى ..

- طبعاً ما دمتم تدفعون له ملايم ... عصام عاشور عندهم طباخ وسفرجى وشغالتان ، وأمه فى المطبخ حتى يأتى عصام وتخدمه بنفسها .. لقد رأيتها فى المطبخ فى جلابب أسود وعلى رأسها منديل أسود ، وهى تُعدُّ الطعام لأولادها ولا تخرج من المطبخ إلا إذا تغدى آخر واحد فيهم .. إنهم خمسة ..

وتقول الأم وكأنها لم تسمع شيئاً :

- هل تريد شيئاً آخر ... إن ورائى عملاً فى غرفتى .

- طبعاً .. مادُمْتِ تريدين أن تكونى أنيقة شابة ، ولا يعنك أمر

أولادك .. إن أم عصام عاشور .

وتقاطعها قائلة :

- إننى لا أعرف هذه السيدة ولا دخل لى فيما تعمل ، إنها تتصرف

بحسب ما ترى وأنا أتصرف كما أريد ... كل منا تدير بيتها بالطريقة
التي تريدها .

- ولكننا متعبون هنا يا ماما .. نحن لا نأكل ولا نشرب ونحن نشقى

فى المواصلات ، إن والد عصام عاشور صاحب مكتب تصدير

واستيراد ... المكتب متر فى متر وليس فيه إلا سكرتيرة ، ومع ذلك فهم

يعيشون أحسن منا مائة مرة ... ثم نقول إن أبى وكيل وزارة ، وماذا

نكسب من وكالة الوزارة ؟ وعصام عنده سيارة وأخته سهام عندها

سيارة .

وتقول الأم :

- الآن تتغدى ثم تنهض لأنى أريد أن أرفع المائدة وأغسل الأطباق ..

لا أستطيع أن أقف بين يديك إلى الليل .

ويقول الولد فى دهشة ووقاحة :

- يا سلام .

وتقول الأم فى حزم :

- لا لزوم للكلام ولا للسخرية .. إننى متعبة وورائى شغل كثير .

ويصيح الولد فى غضب وهو يقف ويضرب المائدة بيده :

- وهل عندك شغل أهم منى .. طبعاً تريدان أن تذهبنى إلى

الكوافيرة .. لا شىء فى الدنيا يهكم غير نفسك .. وابنك الدكتور ؟

وتنفجر الأم وقد فاض بها الغضب :

- دكتور أو تمرجى ، هذا لا يهمنى .. الذى يهمنى أن يكون ابنى

مهذباً فاهماً ذكياً ولا يتعدى حدوده ... لقد تحملت منك فوق ما
أستطيع وأرجوك أن تقفل فمك وكفاية قلة أدب .

يزداد الابن المتمرد غضباً ويقول :

- قلة أدب ... أنا قليل الأدب .

- أيوه قليل الأدب، وأنا أمك ، ولى الحق فى أن أقول لك ذلك .

- لا لست أمى ولا أريد أن تكونى أمى .. الأم هى أم عصام عاشور

التي تقف على قدميها فى المطبخ لتلبى كل طلب للأولاد ... الأم هى أم
سامح نور التى تعطى ابنها كل ما يريد : عشرين ثلاثين جنيهه ...
وبنزين السيارة ...

ويتصاعد النقاش الحاد حتى يصير شجاراً حقيقياً ، ويُقبَل الأب

من غرفته مذعوراً ، وسوزان تهول إلى غرفتها وفى عينيها الدموع وفى
أثرها الابن الأصغر أحمد ، وكان معها فى الغرفة .

ويقول الأب :

- إيه بس يا نادية .. ماذا حدث ؟

- سَلُ ابنك يقول لك ..

- إيه الحكاية يا طارق ؟

- ست هانم ياسى بابا .. ابنها يأتى متعباً من الكلية والدروس وهى لا تريد أن تتحرك من غرفتها .. إنها طوال اليوم أمام المرآة ونحن نحترق ..

- يا نادية ماذا جرى ؟ دائماً تُغضبِين طارق .. الولد مُتعب وعنده دروس كثيرة وهو محتاج إلى رعاية ..
- أنا أعطيه هذه الرعاية ..

ويقول طارق :

- لا ياستى ... هذه الرعاية لا تعجبني ولا أنا أرضى بها .. ليس فى الدنيا أم تعامل أولادها كما تعاملنا ماما . انظر يا أبى .. هل هذا طعام ؟
ويتلثم الأب ويقول كالخائف من ابنه :

- ماله الأكل يا طارق ... أكل كويس وكلنا تغدينا منه ..

- لأن الست الهانم عوَدتْنا على الفقر ... أصحابى يعودون إلى بيوتهم فى أى وقت ويجدون الأم والسفرجى والأكل الذى يحبونه ... أما نحن فحضرة ماما تقدم لنا ما تريد وقتما تريد ... وتدع عم إمام ينصرف قبل أن أعود .

ويقول الأب ، وقد وجد شماعة يعلق عليها غضبه :

- وأين ذهب إمام هذا ... لماذا لا ينتظر طارق حتى يغديه ؟

— لأن الرجل انتظر إلى الثالثة والنصف ، وهو يسكن في إمبابة
وأمامه مشوار طويل .

ويقول الابن :

— وأنا ليس عندي مشوار طويل .. أخذنا الدرس في بيت الدكتور في
شارع قصر العيني ، ولي ساعة في الطريق ..

يقول الأب :

— معلىش يا طارق ..

ويجيب الابن :

— مافيش حاجة اسمها معلىش .. ونحن لا نخضع أبداً للست
الهانم ... إنها تهملنا ولا يهملها إلا نفسها وصدقاتها والكوافيرة
والتواليت ، أنا شبعت من هذا القرف.

وتصيح سوزان باكية :

— حرام عليك بقى .. دع ماما لحالها ..

ويقول الأب :

— صحيح يا نادية ... أنت لا تعطين طارق حقه .. طارق الآن طبيب
ويحتاج إلى خدمة خاصة وأنت لا تقومين إلا بالضرورى .. إنه على حق ،
والأمهات الأخريات يخدمن الأسرة من الصباح إلى المساء ...

وتنظر إليه نادية وتقول :

— كل هذا ولا يكفيك .

ويتشجع الأب وينضم إلى ابنه صراحة ويقول :

- طبعا طارق عنده حق .. وأنا أيضاً عندى حق، والام الحقيقية لا بد أن تكون خادمة الأسرة .. لست أقصد خادمة .. بل أريد أن تخدم الأسرة وتنسى نفسها ... تصوروا إننى لا بد أن أستأذن زوجتى لكى أحصل على فنجان شاي .

وتقول سوزان :

- يا بابا الشاى فى المطبخ ... كله موجود ومن يريد الشاى ما عليه إلا أن يَصُبَّ لنفسه ما يريد من الترمُس .

ويصيح طارق :

- اسكتى أنتِ .. أنت لا تفهمين ، وماما تعطيك كل شىء .

ويقول الأب :

- الحَقُّ يا نادية الولد عنده حق .. إيه الحكاية ، وماذا تخسرين إذا أعددت له الطعام الذى يريده ؟

- ألم تقل الآن إن الطعام طيب ؟

- طيب لى ، ولكن طارق يستحق عناية خاصة .. إنه يستحق منك عناية أكثر بكثير مما تعطينه .

- والله يا بابا .. إن أم عصام عاشور طول الليل والنهار فى خدمة أولادها ... إنها لا تبخل عليهم بشىء ، لا من راحتها ولا من مالها ... من يومين فقط اشترت له فيديو .. وهذا غير الميوزيك ست والسيارة ... ونحن ...

ويستكمل الأب شجاعته ويقول :

- شوفى بقى يا نادية .. هذا الحال لا يرضى به أحد ... طارق تعبان
وليس لدينا إلا هو ... لا بد أن يأكل ما يريد .. ولا بد أن يجد من ينتظره
عندما يعود . وبصراحة إنتِ يادوبك تشرفين على الطعام وتقدمين لنا ما
تريدين.

- هذا رأيك يا ماجد؟

- بصراحة هذا رأى أيضاً ، وأنت لا تقومين لنا إلا بمجهود ضئيل
وتنفقين علينا ملاليم ... وأنا أعطيك كل راتبى .

ويقول أحمد الصغير :

- صحيح يا ماما.. وعزت صاحبى عنده كل شىء ، ويأخذ فى اليوم
نصف جنيه مصروف .

وتقول الأم :

- يعنى عاوزين تقولوا إنى مقصرة فى حقكم .

وتصرخ سوزان :

- لا يا ماما .. لا تسمعى لهم ... حرام يا بابا حرام ... ماما من
الفجر على قدميها .. إنها تعمل المستحيل ... ليست هناك أم تعمل نصف
ما تعمل هى ..

ويصيح الأب وقد أصبح سيد الموقف :

- اسكتى إنتِ يا سوزان ... هذا أمر لا تفهمين فيه .. إن نادية

تتصرف فينا كما تريد ، وقد نفذ صبرى ، ولم أعدُ أحتمل ، إنى أعطيها كل مرتبى .

ويقول طارق صارخاً :

- وهى تتفق نصفه على ملابسها وشعرها ، وابنها يعانى فى الأتوبيس والمواصلات .

ويقول الأب :

- اسكت أنت يا طارق . أنا أعرف كل ذلك ، وأنا المخطيء ، أنا سلّمت إليها قيادة البيت وأنا أعرف أنها لا تستطيع تحمّل المسئولية . إنها مشغولة بنفسها وصديقاتها ، كفاية عليها أمينة زهدى وست زاهية إسماعيل على ، نحن لا حساب لنا عندها ، عندما أحتاج لفنجان شاي بعد الظهر لا بد أن أعدّه بنفسى . الست الهانم مش فاضية . إنها لا تدخل المطبخ بعد الظهر .

وتصرخ سوزان باكية :

- ألا يكفيكم أنها فى المطبخ وشغل البيت من الساعة الخامسة صباحاً ؟

ويقول طارق ساخراً :

- وماذا تعمل ؟ ها نحن لا ناكل بأكثر من مائة جنيه فى الشهر . هل هذا طعام ذلك الذى تقدمه لنا ، أنت لا تعرفين ما تعمل الأمهات فى البيوت الأخرى ، أنا أعرف ماذا يأكلون هناك وأبوهم ليس وكيل وزارة وتقول الأم السيدة نادية بدر الدين وهى لا تصدق ما تسمع :

- هكذا يا طارق ...

ويستمر الابن في ثورته :

- أجل ، وأكثر من ذلك كمان .. أنا أعرف لماذا لا تريد أن يشتري

لي بابا سيارة .. إنك تريد أن تشتري لنفسك سيارة ..

- أنا يا طارق ؟

- نعم ، سمعتك تتحدثين مع ست أمينة زهدى ، عن سيارتها

القديمة ، وأنت تريد شراءها ... مَنْ أُولَى بالسيارة أنت أم أنا .. أنا

طالب الطب ..

- وهل سمعتنى أقول إننى أريد شراء سيارة أمينة ..

- طبعاً ..

- من أين تعلمت الكذب يا طارق ؟

ويصل غضب الابن إلى الهياج ويقول :

- أنا كذاب يا ماما ..

ويقول الأب :

- لا يا نادية هذا لا يجوز ... كيف تقولين لطارق إنه كذاب .

وتقول نادية وقد بدأت موجة الهياج تجتاحها :

- أنا لم أقل إنه كذاب ، ومع ذلك فهو كذاب لأنه يكذب ، فأنا ما

تكلمت مع أمينة فى شراء سيارتها لأننى لا أملك ما أشتريها به .

ويصيح طارق :

- كذب .

- أنا كذابة يا طارق ؟

ويقول الأب : إذا كان الولد قد سمعك بأذنيه ..

- عيب يا ماجد ... لا يصح أن تقول ذلك . إن علينا أن نربى

أولادنا ، وطارق يكذب وأنا أمه ولى الحق فى أن أقول له إنه يكذب .

ويقول الأب: لا ، ليس لك هذا الحق ... تربية الاولاد وأمهم أيضاً من

حقى أنا ... أنا رجل البيت .. وأنا صبرت عليك طويلاً ، وأن الأوان لأن

أقول لك إنك لا بد أن تقفى عند حدودك .

- وما هى حدودى ؟

- اسمعى يا نادية .. نحن لا نريد مضايقتك ، والبيت الآن فيه

رجلان ، ومن المستحيل أن يغلب علينا رأيك ... ستذليننا بمسألة الأكل

والمطبخ والبيت ، لقد قال لك طارق ماذا تعمل الأمهات الأخريات اللاتى

يُحِبِّبْنَ أَسْرَهُنَّ ... حدودك المطبخ وتدبير البيت ، ومن الآن سأتولى أنا

كل شىء .

ويقول طارق :

- وستشترى لى السيارة يا أبى . أليس كذلك ؟

- طبعاً يا طارق .

ثم يقول لزوجته :

- الآن أريد الحساب .. اذهبوا أنتم لشغلكم يا أولاد .. سأصفى

الحساب مع نادية .

وتقول نادية :

- لا .. بل يظل الأولاد ليروا كل شيء ..

ويريد طارق الذهاب. لقد حصل على وعد بالسيارة وانتهى هنا ما يهمله ، ولكن نادية تقول :

- لا يا طارق ، لن تخرج من هنا حتى ترى كل شيء بنفسك ، هذا من حقك ، وواجبي أن أعرفك بكل الحقائق .

- يا ماما .. مسألة الحسابات هذه لا تهمني .. أنا ورائي مذاكرة ودروس ..

- إذا خرج واحد منكم من هنا فلا حساب ..

- يعني إيه ... ؟ لن تشتروا لي السيارة ..

- سستري بنفسك الآن كل شيء ، ستعرف إن كنت تستطيع الحصول على سيارة أو لا تستطيع ... هات لي دفاتر الحسابات يا سوزان .

وتمضى سوزان وتأتي بدفاتر حسابات كبير ودوسيه فواتير ومفكرة صغيرة ، وتفتح الأم الدفتر وتقول :

- ماجد .. كم جنيهاً تعطيني في الشهر ..

- كل مرتبتي ..

- مرتبك ٣٥٠ جنيهاً فهل أنت تعطيني كل شهر ٣٥٠ جنيهاً :

- لا .. ٣٠٠ وأنت وافقت على ذلك .

- نحن لا نناقش ذلك الآن ، نريد أن نعمل الحساب أمام أولادنا ...
- طيب يا ست هانم ، أنا أعطيك كل شهر ٣٠٠ جنييه ، ولا يبقى
معى إلا ٥٠ جنيهاً ... هل هى كثير علىّ .

ويقول طارق :

- لا يا بابا ... هذا أقل ما ينبغى لك ... أنت وكيل وزارة ..
- ووكيل الوزارة كم يتقاضى فى الشهر عن جلسات واجتماعات
ومكافآت إضافية ..

ويقول ماجد غاضباً :

- وهل لك دخل فى ذلك .. هل تريدن محاسبتى على هذا أيضاً ...
- نعم .

- هذا ليس من حقك ..

- بل من حقى ، لأنك كل شهر تسترد من الثلاثمائة جنييه ما بين
عشرين وثلاثين جنيهاً ..

- عندما تنتهى تقولى أستدين منك عشرة .. خمسة عشر جنيهاً .. ثم
أردها .

- هذا الشهر أخذت منى ٢٠ جنيهاً يوم ١٨ ، وعشرة جنيهاً يوم
٢٤ ، فهل رددت لي ٣٠ جنيهاً .

- مش عارف ..

- بل تعرف ... كل شىء مُدَوَّن هنا ..

ويقول طارق :

- بابا من حقه أن يأخذ ما يريد وكلها فلوسه .

- حسناً ... نسير في الحساب . أعطيتنى هذا الشهر ٣٠٠ جنيه وأخذت ٣٠ .

- هذا الشهر فقط ... كان شهر غير عادى ..

- والشهر الماضى أخذت ٥٠ ثم ١٥ ولم تردها ..

ويجنح الأب ويقول مستنكراً :

- الأمر لله يا طارق ... هذا محضر تحقيق .

وتواصل الأم تقليب الدفتر وتقول :

- والشهر الذى قبله أخذت ٥٠ جنيهاً والذى قبله ستين .

ويضيق صدر الوالد ويقول :

- مانا تريدین أن تقولى ؟

- أريد أن أقول إنك تعطينى كل شهر ٣٠٠ ، وتسترد ٥٠ فى المتوسط ، فكل ما آخذه منك مائتان وخمسون .

ويقول طارق :

- كويسين ... هذا مبلغ كبير .

وتقول الأم :

- نعم كبير ندفع منه ٦٠ نور وميه و ٥٠ تليفون و ٤٥ للبواب والزبال .

ويقول طارق :

- الزبال ...

- نعم لأنه يأخذ زباله البيت كل يوم .

- ولماذا لا يحملها عم إمام وينزل بها كل يوم ؟

- وهل توقف الآن على ٣ جنيه للزبال ؟ و٧٥ جنيه لعم إمام ..

- ولماذا يأخذ عم إمام هذا المبلغ كله ؟

- لأنه يعمل هنا كل يوم من السابعة إلى الخامسة بعد الظهر ..

- تستغنى عنه !

- في بيوت أصحابك لا يوجد خدم؟

- يعنى ... لكن احنا حاجة تانية ..

- طيب نعمل الحساب ، ثم نرى ماذا نعمل بإمام وغيره ، أنا آخذ

منك ٣٠٠ جنيه ، والمصروفات الدائمة ١٥٠ فالباقي ١٥٠ .. هل هذه

تكفى لمصروف البيت ؟

يقول ماجد :

- يعنى بالتدبير والتوفير من مصاريف الكوافيرة ، وأدوات الزينة .

ويقول طارق :

- طبعاً...

وتقول الأم :

- طارق ... هذا الشهر أنت أخذت منى ٨٠ جنيهاً .

ويقول طارق دهشاً :

- بتوع إيه؟

- بتوع الدكتور مدرس الباثولوجى ..

- آه ... يعنى لا آخذ دروساً ..

- لا لا تأخذ ... المهم ... هذا الشهر كل ما بقى مما أعطيتنى إياه

يا ماجد خمسة جنيهاً ...

- غير معقول ..

- والشهر الماضى دفعنا ٨٠ جنيهاً درس الباثولوجى ... وطارق

يأخذ كل شهر مصروف جيب وسوزان ٥٠ جنيهاً ..

ويقول أحمد الصغير :

- وأنا عشرة فقط ..

ويقول الأب : إذن نحن نعيش من الهواء .

- لا ... من المبلغ الذى كنت ادخرته من عملى ، وميراث أبى قبل

زواجنا ..

- كان مبلغاً كبيراً ... حوالى ٥٠٠٠٠٠ جنيه عن عملها وميراثها عن

أبيها .. وفلوسى وفلوسك واحد ..

- إلى الآن كانت شيئاً واحداً ، وما فكرت لحظة فى أن أضنُّ بمليم

مما عندى ..

ويقول ماجد :

- طيب .. نستمر على ذلك . ولا بد أن هناك شيئاً تستعين به على

شراء سيارة طارق ... أنا قلت إننى أستطيع تدبير ألف جنيه ..

- مع الأسف ... هذا كل ما بقى من نقودى .. أمامكم الحسابات شهراً بشهر . وهذه دفاتر الشيكات .. راجعوا كيف تشاءون .. وأنت يا ماجد وكيل الوزارة للشئون المالية .. هذه هى الدفاتر أمامك أريد أن ترى منها كم أنفقتُ على البيت وكم أنفقت على نفسى ؟

وتضايق طارق وقال :

- المهم كم الباقي ؟

وتقدم الأم كشف حساب البنك للأب ، وينظر ويقول :

- ٨٠٠ جنيه .

ويصرخ طارق :

- أين ذهبت النقود ؟

- الدفاتر مع أبيك ... بعد أن تعملوا الحساب نادونى ، وأنا ذاهبة الآن إلى حجرتى ... تعالى يا سوزان ، اذهبى أنت لحجرتك .. دعى البيت لرجال البيت . أنا ذاهبة لأستريح ..

ويمسك الأب الدفاتر وينظر ، ويجلس إلى جانبه ابنه يراجع ، وعلى وجهيهما حزن ودهشة .

* * *

obeikandi.com

[٣]

جلست نادية في غرفتها صامتة ، ملامح وجهها تتحدث عن شيء أكثر من الحزن ، إنها الحسرة والألم العميق وخيبة الأمل . معقول هذا ؟ ثلاثة وعشرون سنة من الزواج والإخلاص والتفانى والأشغال الشاقة وهذه هي النتيجة ؟ هل هذا هو كل ما للزوجة والأم في هذا البيت ؟ العمل من الفجر إلى الغروب . وإرهاق النفس والتضحية بكل شيء ثم يكون هذا كل ما لها : الزوج لا يراها إلا خادمة ولا رأى لها في شيء ويهتمها بالجهل والتبذير ، والابن ينهر وينتظر منها أن تسعد بالارتماء عند قدميه ، أى وجود للمرأة هنا وأى مصير ؟ .

ويطرق الباب في رِقَّةٍ . إنها ابنتها سوزان وهى تعرفها من نُقرها على الباب ، وتدخل سوزان باكية وهى تقول :

- معقول هذا يا ماما .. معقول هذا الذى يعملونه معك ؟

- نعم يا سوزان ... فى بلدنا هذا هو وحده المعقول . وهذا هو كل مصير المرأة .

- ونقودك .. كيف أنفقتيها عن آخرها علينا .

- إذا كنت قد أنفقتُ الصحة والعمر ، وهى أعزُّ من المال . فكيف

أبخل بالمال ؟ كنت أظن أن هناك على الأقل الشكر وعرفان الجميل .

وتقول سوزان باكية :

- ولكن طارق يا ماما ... كيف يفعل معك ذلك .. كيف يقول ما

قال ؟

- طارق مثل كل الشبان في هذا البلد ، الأم خادمة . عليها أن تعمل
وتشقى حتى تشيخ وينحنى ظهرها وتترهل وهى واقفة فى المطبخ ،
وأقصى ما يمنحونها إياه نظرة عطف : ست الحبايب .

- وماذا ستفعلين الآن ؟

- لا أدرى ...

- معلىش يا ماما ... برضه أنتِ الخير والبركة .

وتقاطعها الأم : لا يا سوزى . لن أنتظر حتى أصبح مجرد بركة ..
لن أنتظر حتى يكبر طارق ويعطينى نفقات الحج لأصبح ست
الحاجة .. سأحج يوماً ما ، ولكن على حسابى ... لن أنتظر المصير الذى
يريدونه لى .

- ولكنك يا ماما صبرت طويلاً ..

- وهذا هو خطأى وخطأ أمثالى من الأمهات : الصبر إلى ما لا
نهاية ، الصبر بلا حدود ... هذا هو الذى يفسد الزوج ويفسد الأولاد ...
كنت أحسب أن الأم هى سيدة البيت فعلاً ولها كلمة فيه .. وها أنتِ
ترينَ ماذا كانت النتيجة ...

- وماذا ستفعلين .

- لا أعرف ... أريد أن أفكر ... لا بد أن أعمل شيئاً . كل شىء ممكن
إلا الاستمرار على هذا الحال . لقد داسونى بالأقدام ، لو سكتُ
لداسونى مرة أخرى وثالثة ورابعة ، وبعد ذلك أصبح ممسحة ... هذا
ليس فى صالح الأسرة ولا فى صالح طارق أو حتى ماجد ... ربما كنت أنا

المسئولة عما حدث . لهذا لا أريد أن أكون مسؤولة عما سيحدث ...
اسمعى يا سوزى .. اذهبى إلى غرفتك الآن وفكرى لأنى أريد أن أخلو
بنفسى هنا وأفكر ..

- طيب يا ماما .. أتركك الآن .. وعندما تنتهين إلى رأى نادينى .

- لا يا سوزى .. لا تتركى لى الرأى .. لا تتركى الرأى فى أمر من
أمورك لأحد ينفرد به من دونك .. أنتِ بنتى ولكنى لن أفكر لك ... لن
أفكر نيابة عنك .. فكرى أنتِ أيضاً .. فهو مصيرى ومصيرك .. أقصد
مصيرك فيما بعد عندما تكون لك أسرة وبيت .. من الآن لا بد أن تعرفى
طريقك .. سأساعدك على تعرف طريقك ، ولكنى لن أجده لك .

- إذن أتركك الآن ، وعندما تحتاجين إلى أنا فى حجرتى .

* * *

وتستقر نادية فى غرفتها . إن ما حدث خلال الأيام الأخيرة غير
معقول ، كانت تحس أن أمور بيتها لا تسير كما كانت تتمنى ، كانت
تحس أن هناك عاصفة فى الطريق وأن السحب تتجمع ، ولكنها لم تكن
تتوقع أن يكون الانفجار مروعاً على الصورة التى رأتها ، كلهم
ينكرون فضلها . كلهم يريدون أن يدوسوها بأقدامهم . هل من
المعقول أن زوجها ماجد - وهو يعرف قدرها - يطالبها بالحساب كأنها
خادمة تسرق من أسعار الحاجيات ؟ ولكن الذنب ذنبها . لقد نسيت أنها
تعيش فى عالم صنعه الرجال على مقياس الرجال . هنا لا مكان للمرأة
أصلاً ، مكانها على هامش الزوج ، ثم على هامش الأولاد والوظيفة
الحقيقية خادمة ، السيدات اللاتى يرصين بدور الخادمة لا يشعرن

بذلك ، إنهن راضيات بمصيرهن وبما يُلقى إليهن من فُتاتٍ ، ولكنهن بذلك يقضين على الأسرة . الأسرة في حاجة إلى أم تتصرف كأُم ، يعاملها الناس على أنها أم لها نصيبها من السيادة ولها حقوقها ومجال سلطانها . عندما تتحول الأم إلى خادمة تضيع الأسرة ... لهذا ينبغي أن تتصرف ، ينبغي أن تحتفظ بسيادتها لكي تحافظ على أسرتها ، إنها ليست غاضبة على طارق لأنه يعاملها وكأنه سيد ثانٍ في البيت بعد أبيه . لو رضيتُ بذلك لعاملها أحمد الصغير نفس المعاملة . لا بد أن تفعل شيئاً لإنقاذ نفسها وأسرتها .

ومضى يومان ، وفي اليوم الثالث كانت قد انتهت إلى قرار .

ورفعت سماعة التليفون وطلبت صديقتها أمينة في السفارة التي تعمل فيها ، قالت في صوت هادئ :

- أمينة ... الوظيفة التي حدثتيني عنها ، عن بيت الضيافة الذي أنشأه الأمريكيون هل زالت شاغرة ؟

- أنتِ بنت حلال .. مستشار السفارة كَلَمنى الآن . إنه يتعجل الترشيح ، والمستر ادواردز سيأتى الآن ..

- ومن المستر ادواردز هذا ؟

- مدير البيت .. إنه هو الذى يبحث عن مديرة للبيت ، ولكن قولى لى لماذا تسألينى ؟

- أريد أن أسألك .. هل أصلح أنا لهذه الوظيفة .

- نادية .. ! جادة أنت ؟ هل تعرفين أن هذه الوظيفة تحتاج إلى تفرُّغ

كامل.. تذهبن هناك في الساعة صباحاً وتظلين في العمل إلى الثالثة بعد الظهر.

- ومستعدة أن أنام في موقع العمل أيضاً .

- نادية ! لا أصدق ما أسمع ! إما أن أكون أنا قد جُئِنتُ ، أو تكوني أنت التي أصابها الجنون .

- لا أنا ولا أنت .. أنتِ كنتِ عاقلة دائماً لأنك بقيتِ في وظيفتك ، أما أنا فقد عقلت .

- هذا كلام كبير يا نادية .. التليفون لا ينفع هنا .. أريد أن أتى إليك لا أطيع الصبر ، ولكنى لا أستطيع ترك المكتب الآن . السفير في انتظار المستر ادواردز .

- أى أنك سترئيئه الآن ...

- طبعاً ... إن مواعده الحادية عشرة وسيأتى بالدقيقة .

- إذن قولى له إنك وجدت المديرية وحددى لى معه موعداً .

- هل فكرتِ فى ذلك جيداً ؟ إن هؤلاء الرجال جادون ، والكلمة معهم عقد .

- وأنا أيضاً ... حددى لى معه موعداً اليوم إذا أمكن .

- ألا تنتظرين حتى نتكلم أنا وأنت ؟

- نتكلم بعد ذلك .

- أمرك يا ست نادية . يعجبك اليوم بعد الظهر ؟

- نعم ، فى أى وقت يريد .

حسناً يا نادية .. الآن سأقفل السكة ، السفير يطلبني .

- اتفقنا .. أنا في انتظارك ..

وتضع السماعة وتحمد الله . كانت تخشى أن تكون الوظيفة قد ضاعت . لقد أنهت معظم عملها في البيت لهذا اليوم نهضت في الخامسة والنصف على عاداتها ، عم إمام يعمل في المطبخ . الآن تذهب إليه لإنجاز كل شيء ، منذ المناقشة الحامية أو المشاجرة الحاسمة قبل أيام وهى لا تكلم إلا ابنتها سوزان ، انتهى الكلام بينها وبين زوجها وابنها طارق . الصغير أحمد انضم إلى أخيه وأبيه ، العائلة الواحدة أصبحت عائلتين . السادة في ناحية ، والعبيد في ناحية . في صف العبید وقف عم إمام .

فرغَتْ من كل شيء الواحدة بعد الظهر ، أعطت تعليماتها لعم إمام وأوتت إلى غرفتها ، دفاترها وأوراقها لا زالت على منضدة في الصالة . السادة ينظرون فيها بين الحين والحين . وصلت الأزمة إلى مرحلة المواجهة ، والسادة لا يتنازلون ويكلمون العبید قط . إنهم يحققون منهم لأن العبید دائماً مذنبون والسادة دائماً على حق .

وتأتى سوزان من الجامعة .. من باب الفيلا إلى غرفة أمها . إنها متحيرة من أمر ما حدث ولكنها سعيدة به . أخيراً جاء وقت المعركة التى انتظرتها دون أن تدرى كيف تكون . أمها اليوم تقود المعركة وهى من خلفها .

وتدخل سوزان غرفة الأم . تجدها مُرْتَبَةً على العادة وأمها خلعت ملابس العمل ولبست بلوزة وجونيلاً وسرحت شعرها ورتبت هياتها

أمام المرأة وفتحت الراديو لتسمع موسيقى رقيقة وجلست تقرأ قصة
مدام جوفارى . ضحية الخاطئين التى اتخذوها جميعاً كبش فداء .

وتقول سوزان بعد أن تُقبل أمها :

- إيه ... ما فيش أخبار ؟

- فيه .

قالت - فى لهفة البنت المتشوقة إلى التغيير - :

- إيه يا ماما ... قولى .. قولى ..

- أولاً إجلسى واسمعى كلامى كله بهدوء . لقد فكَّرتُ فى كل شىء

واتخذت قرارى وأريد رأيك .

- حاضر .. حاضر .. تكلمى .

وبكل هدوء قالت الأم بعد أن أوقفت الموسيقى :

- لقد قررت أن أعود إلى العمل فى السفارة .

وقالت سوزان فى خيبة أمل :

- وماذا نكون قد صنعنا .. ستعملين وسياخذون نقودك ، وطارق

سيشترى السيارة ..

- لا يا سوزان .. سأعمل وسأترك البيت .

وفى فزع قالت الصغيرة :

- إلى أين يا ماما - وتتركينى ؟

- لا يا سوزان ... أنت الوحيدة التى ستعرف أين أقيم .

- وأين تقيمين ؟

- فى نفس مكان العمل ... سأكون مديرة دار ضيافة أنشأتها إحدى السفارات .

- مديرة ؟ ما معنى مديرة .. هل هذه وظيفة .

- نعم هى وظيفة ، ووظيفة محترمة جداً وراتبها كبير ... يسمونها هاوس كبير .

- وماذا سيكون عملك هناك ؟

- نفس عملى هنا ...

- يعنى الخدمة ...

- نعم خدمة . كل عمل يُؤجّر عليه الإنسان خدمة . كل من يعملون فى الدولة من الكبير إلى الصغير خدم ... يسمونهم سيفيل سيرفانتس . ولكن الفرق يرجع إلى من تعملين معه وله ، فإن كان محترماً فإن الخدمة تكون محترمة ، وإذا لم يكن هو محترماً فأى عمل معه يصبح مهانة بدون مهانة .. وأنا هنا فى هذا البيت ربة بيت ... المفروض أننى سيدة هذا البيت ، ولكنهم لم يفهموا عملى ولا قدرونى . اعتبرونى خادمة . خادمة بدون أجر . بل كنت أدفع من عندى مالاً ... وليتهم مع ذلك رضوا عنى .

- ولكن يا ماما ، لا بد أن أعرف ماذا ستعملين .

- سأقول لك عندما أتكلم مع المدير .. ولكن ثقى أننى أعرف أين

أضع نفسي . ما دام أحبُّ الناس إلى لم يعرفوا مقامى فلا بد أن أعرفهم بمقامى .

- ولكن ماذا ستقولين لهم هنا ؟

- لا شىء ... إذا أعجبتنى شروط العمل هناك سأستقيل من هنا ..

- ماما .. أنا لا أفهم ... تستقيلين من ماذا!؟!

- من عملى هنا ... إننى هنا زوجة وأم . هذه وظيفة لا تتغير ، وهذه الوظيفة تفرض على التزامات كنت أؤديها سعيدة بها ، ولكنهم لم يعرفوا قدرها ... لهذا سأستقيل من هذه الالتزامات ... بعبارة أخرى ، سأؤدى نفس الخدمة لناس آخرين ، ناس يحترمون العمل والعامل ويعطونه أجراً عادلاً ...

- ستعملين بيدك ؟ ستقفين فى المطبخ ... ستمسكين المقشة ..؟

- لا يا سوزان .. هذا ليس من عمل الهاوس كبير .. بيوت الضيافة والفنادق تحتاج إلى إدارة وإشراف على الذين يقومون بالعمل : الطباخين والخدم والسفرجية والفراشين .. ومع كل فأسئلتك هذه سابقة لأوانها .. انتظري حتى أتكلم معهم ثم أعود إليك .

وتحاول سوزان الكلام ولكنها تتوقف . هناك ضجيج وأصوات فى الدور الأول من البيت . سوزان تفتح الباب وتسمع إنه صوت طارق . إنه غاضب يتحدث مع أبيه .

- وبعدين يا بابا ... ماذا سنعمل مع ست هانم التى تتدلل علينا .. أربعة أيام اليوم ولا يراها أحد .. تطبخ لنا أى كلام ثم تأوى إلى

غرفتها .. ست هانم تريد أن تؤدبنا .. أنت المسئول يا أبى .. أنت تتساهل معها .. إنها تريد أن تركبنا ... ماذا فى الأمر إذا كنت قد تكلمت بشىء من الحدة .. صاحبى عصام يقول لأمه مايشاء وهى لا تغضب أبداً .. بالعكس .. هى التى تسترضيه دائماً .. وست ماما زعلانة لأن ابنها قال لها الحق .

ويقول الأب :

- والله يا طارق أنا لا أدرى ماذا أصاب نادية ..

- أنت .. أنت السبب ..

وكان عم إمام واقفاً فى المطبخ ، فخرج وسأله :

- الأكل جاهز يا سعادة البيك .. هل أعدُّ السفرة .

ويقول طارق ساخراً :

- سفرة .. ولماذا سفرة - هذا الطعام الحقيير الذى تعدونه لنا لا

يستحق سفرة .. كُلُّهُ أنت وست هانم وست سوزان ... أنا ذاهب لأتغدى

فى بيت محترم .. سأأكل عند صاحبى عصام عاشور .. والله لقد أَلحَ علَيَّ

فى أن أكل عندهم ، ولكنى حسبت أن الحال هنا تحسن .. وهى أنت

ترى .. ست هانم نائمة فى غرفتها وعم إمام يستأذن لى يقدم لنا بعض

الخضار المسلوق .. وبعدين .. أنا محتاج لنقود .

- أنت ترى الحال يا طارق .. نحن لم نكن نعلم شيئاً عن حالتنا

المالية .. انتظر إلى أول الشهر .

- وهل تصدق هذه الدفاتر وتلك الأوراق؟

- طارق .. ماذا تريد أن تقول ؟

- قصدي أن ماما عندها الفلوس .. غير معقول إنك تكون وكيل وزارة وأكبر من والد نور سلامة وتكون تلك هي حالتك المالية .. أم سامح نور سيدة تعرف مقام بيتها وزوجها وأولادها .. وإنما عندهم نقود .. نور يلعب بالفلوس لعباً .

- ربما كان عندك حق يا طارق .. سأعيد النظر في هذه الأوراق .. هناك شيء لا أفهمه ..

- ولكني أفهم كل شيء .. أفهم أنك دللتها أكثر مما ينبغي ، وأنا كنت ضعيفاً أمامها .. انتظر يا والدي .. سأسأل عصام ماذا لديهم اليوم .

ويمسك التليفون ويحدث صديقه عصام عاشور .. إنه يسكن على بعد خطوات منهم .. إنه أيضاً طالب في الطب .. وبعد المكالمة يقول لأبيه :

- هذه هي البيوت ياسى بابا .. هناك الأكل أشكال وألوان ، وأم عصام بنفسها نقيسة هانم تقف على خدمة عصام وأخيه وأخته ... عندهم طباخ وسفرجى واثنان من الخدم .. ونحن .. كفاية علينا الكوافيرات وعم إمام .. أنا ماشى .. وأنت لازم تشوف لنا صرفة معها .. هذه ليست معاملة طالب في السنة الثانية طب .. سأتغدى هناك وأذاكر وربما أتعشى ..

ويخرج الابن وهو ينظر إلى عم إمام بازدراء ، ويقول عم إمام :

- أحضر الأكل يا سعادة البيه ..

- لا .. هات لى الست .. نادية ... يا نادية ..

ومن أعلا تقف نادية وتقول :

- فيه حاجة ؟

ويرد ماجد غاضباً :

- كل هذا وتسألين : فيه حاجة - طبعاً فيه .. الولد مشى .. ترك

البيت .. عاجبك ؟

- وماذا أعمل ؟

- أنتِ السبب - كلنا لا تعجبنا هذه المعاملة - كلنا لا نفهم شيئاً وأنتِ

السبب .. اتفضلى تعالى .. تعالى شوفى لك صرفة فى بيتك ...

- أنا عملت ما عندى ، نظفت البيت وأعددت الطعام .. هذا كل ما

عندى .. وينفجر الأب غاضباً ويقول :

- ماذا تريدين - أن أخسر أولادى بسببك ؟ خربتِ البيت وتقولين :

إن هذا كل ما عندك ؟ لا يا ست نادية ، والكلام ده ما يعجبنيش .. وإذا

كانت المعاملة الطيبة لا تنفع فإن لى كلاماً آخر .

وتتركة نادية وتدخل حجرتها ومن ورائها ابنتها ، وتغلق الباب .

واليوم التالى تقول لابنتها :

- ما رأيك يا سوزان فيما حدث بالأمس ؟

- إننى لا أصدق أذننى يا ماما .. غير معقول هذا الذى سمعته .. بعد

كل الذى عملتيه لنا .. هذا جزاء الإخلاص والحب وتضحية المال .. ومن هو طارق حتى يقول إنه يشك فى حساباتك ؟

- هذا هو مصير المرأة هنا .. ذلك هو مكانها وهذا هو كل مقامها .

- ولكن ... لماذا أنتِ .. هل يمكن أن يتكلم عصام عاشور أو نور سلامة عن أمهما بهذه اللهجة ..

- ربما لا .. لأن الأمهات هناك يرضين بأى شىء .. مسكينة وبتلقى أى إهانة ، وهُنَّ ينسيْنُ أنهن بذلك يُفسدنَ الأولاد - أما أنا فلا أريد أن أخسر ابنى .. لا أريد أن أدله وأعامله على أنه طفل ، طارق الآن رجل وينبغى أن يعامل معاملة رجل ..

- ولكنك بخروجك من هنا ستزيدين تدليله .. ستعملين وتعطينه .

- هذا هو الموقف يا سوزان .. سأعمل الآن لنفسى ولك . لن يأخذوا منى شيئاً إلا إذا تغير الوضع هنا .. إنهم الآن يحتقرون عملى ويركلونه بأقدامهم - كنت أقدم لهم عملى سعيدة راضية ، فلم يعجبهم ذلك .. الآن سنرى إن كان عملى هذا له قيمة .

- يعنى : ستعملين هناك وتنامين هناك ؟ فى هذه الحالة .

- انتظرى حتى أرى الرجل وأعرف حدود ذلك العمل .. إنزلى أنتِ الآن وتناولى غداءك .

- تعالى معى يا ماما .

- أجل سأتى .. قولى لعم إمام يضع الطعام ، وأنا قادمة .

وجلست نادية إلى المائدة تأكل مع ابنتها ، وأثناء الطعام أقبل زوجها ماجد ، وسُراً لأول ما رآها ولكنه ما لبث أن تجهم وجهه وقال : - ماذا حدث .. ألم يعد أحد ينتظرني للطعام .

قالت دون تكلف :

- انتظرتُك إلى الساعة الثانية والنصف .

- ولكنك تعرفين أنني أحياناً أتأخر في العمل إلى ما بعد ذلك ..

- أجل أعرف ذلك ، ولكنى أحسست بالجوع .

- هذا شيء جديد ..

- الجوع ؟

- لا .. عدم انتظاري .

- لم يحدث ضرر على أى حال .. ها نحن على المائدة ، تستطيع أن تغسل يدك وتجلس معنا ..

- أمامى ربع ساعة على الأقل لكى أغتسل وأتى ..

- نحن فى انتظارك .. لن نترك المائدة قبل أن تأتى .

- ثم إننى لا بد أن أنتظر طارق .. إننا ننتظره كل يوم ..

- طارق ليست له مواعيد ، وأحياناً يأكل خارج البيت .

- هذا لأن الطعام هنا لا يعجبه ... وعنده حق ..

- هذه المرة سيعجبك ويعجبه ..

- لا أظن ...

ومضى إلى غرفته واستمرت نادية في طعامها ، وبدا الضيق والغضب على وجه ابنتها سوزان ، فتظاهرت بأنها لم تلاحظ شيئاً وقالت :

- إيه أخبار الكلية ؟

- لا شيء ...

وأقبل طارق ، وجهه عابس . لا يحيى أمه أو أخته ، ويتجه إلى التليفون وعم إمام يسأله :

- سيدى الدكتور سيتغدى .

- أنتَ تعرف أننى لا أتغدى هنا .. أكل المدارس هذا لا يعجبني ولا يعجب أحداً .

وسوزان لا تطيق الصبر فتقول :

- تقول هذا دون أن تعرف ماذا أعددنا .

- أعرف دون أن أرى ... من عشرين سنة ونحن نأكل على كيف ست ماما ... من هنا وطالع أنا لن أكل هذا الطعام .. وعلى فكرة أنا غير مقتنع بالكلام الذى قدمته إلينا ست هانم فى الورق ..

- يعنى ماما حَتَّزور .

- لا أعرف ... إسألها ... إنها بجوارك .

- ولماذا لا تسألها أنت ؟

- بعد ما قالته لنا أول أمس ليس لى معها كلام ...

ويأتى الأب ويقول :

- ماذا جرى يا طارق ... زعلان ليه ؟

- ست سوزان بتدافع عن ست ماما ...

ويتصنع الأب الطيبة ويقول :

- لا داعى للمناقشة والدفاع ... نادية لازم راجعت نفسها وعرفت

خطأها ، وبإذن الله كل شىء يسير على ما تريد ..

وتقول نادية بهدوء :

- أى خطأ ؟ !

- قصدى .. أننا حتى لو كنا معذورين لازم نشوف ابننا عاوز إيه ..

ويقول طارق :

- مش معذورين ولا حاجة .. ده كلام لا يصدقه أحد .. أنت وكيل

وزارة وتكسب مئات ، وكله تأخذه ماما .. أين يذهب ذلك كله ؟

وتقول سوزان :

- لقد رأيت بنفسك أين يذهب ذلك كله .

- كلام فارغ .

وتقول نادية :

- هل راجعته لتقول إنه كلام فارغ .

- لست فى حاجة إلى مراجعة .. أنا طالب طب ولى مخ وأفهم .. ماما

عندها الفلوس .. ولكنها تريد أن تؤدبنا .

ويقول الأب :

- لا داعى لهذا الكلام يا طارق ..

- لماذا لا داعى .. ألم تقل لى أمس إنك تعطى ماما كل ما يصل إليك
من مكافآت وزيادات ٥٠٠ جنيه فى الشهر على الأقل ؟

ويحرج الأب ويقول :

- أيوه يا طارق .. لكن مش كده .

وتقول نادية :

- إنت قلت لطارق إنك تعطينى ٥٠٠ جنيه فى الشهر على الأقل ؟

- ليس بالضبط .. لكن لا يصح أن نتناقش بهذه الطريقة .

- إذا كنت أنت تقول لطارق إنك تعطينى هذا المبلغ كل شهر ، فلا
داعى لأى مناقشة . أنت تعرف أن ما قلته هو الحق .

- قل ما تريد .. فى بعض الأحيان يكون الكلام نفسه إهانة ..

- سيبك منها يا بابا ... هذه أشياء أنا أعرفها .. الحكاية كلها أنها لا
تريد أن تساعد فى ثمن السيارة ..

ولا تلقى نادية بالآ إلى ما قال ابنها ، وإنما تقول لزوجها :

- إذا حدث ولم أكن أنا هنا يوماً لأى سبب فقم أنت بالإنفاق على
البيت وإيرادك والحمد لله يكفى .

- ويكفى أيضاً لشراء سيارتى ...

وتقول الأم فى هدوء وهى تنهض وتتجه إلى غرفتها :

- ربنا يسمع منك ...

ونهضت إلى غرفتها ، وبعد دقيقة لحقت بها سوزان وقالت :

- عندك حق يا ماما ...

- رأيت وسمعت بنفسك ؟

- أنا أيضاً لا بد أن أذهب .

- لا يا سوزان ، لن تخرجى من بيتك إلا بعد أن تتخرجى ويكون لك

عمل وتعتمدین على نفسك ...

- ولكنى لا أستطيع البقاء هنا ...

- تستطيعين ... هذا بيتك ، وهنا أبوك وإخواتك ، ولا دخل لك بهذا .

- بل لى دخل .

- نعم لك دخل ، ولكن ليس الآن .. هذه الأسرة تجتاز الآن تجربة

قاسية وأنا أتحملها لأنها تجربتى ، وليس من الممكن أن تسير أمور

أسرة سليمة بهذه الطريقة ، الأبناء يظنون أنهم سادة الأسرة ، وكل

شئ ينبغى أن يكون فى خدمتهم ، وكل من فيه لا بد أن ينحنى لهم ،

والأب فقد توازنه أمام أولاده فلم يجد إلا الأم يضع عليها الجمل كله ،

تصوّرى أنه لا يعطينى إلا نصف إرادته الحقيقى ويزعم لابنه أنه

لايستبقى لنفسه شيئاً .

- يكذب عليه ...

- أظن أنه لا يدرى أنه يكذب ، إنه يكذب على نفسه أولاً وما دام

الإنسان قادراً على أن يكذب على نفسه فقد ضاع معنى الصدق والكذب منه ..

- وماذا ستعملين أنت؟

- على أن أعود بأسرتي إلى الطريق السليم .

- ستظلين معنا إذن ...

- لا .. لن أظل .. فسأدعها وحدها لتسير إلى آخر الطريق ، عندما تصل إلى النهاية وتتنظر فلا ترى أمامها إلا الهاوية ستعود .. هنا سأعود أنا أيضاً ... إذهبي أنت إلى غرفتك الآن ، لا تتدخل في شيء ، احتفظي بهدوء أعصابك وراقبي كل شيء .. تعلّمي من التجربة . وسواء أكنت أنا هنا أم في مكان آخر فإنني سأكون معك دائماً . ستعرفين أين أكون دائماً وستعرفين كيف تتصلين بي ...

- وماذا ستفعلين؟

- سأعمل ... هل هناك طريق للحياة المعقولة إلا العمل .. اذهبي أنت إلى غرفتك ولا تخافي شيئاً ، أنت هنا مع والدك وهو رجل طيب ولكنه لم يعد يرى الطريق .. إنه أب عطوف كريم فلا تخافي شيئاً ... إنني ذاهبة الآن .. عندي موعد مع أمينة زهدى .

- إذن فستعودين إلى العمل في السفارات .

- نعم .. شيء شبه ذلك ..

- عندك حق .. الإنسان لا ينبغي أن يدع مصيره بيد غيره ..

- وخصوصاً المرأة .. اذهبي الآن .. سأخرج بعد قليل .

- وستعودين ..

- نعم سأعود .. سأحكي لك كل شيء عندما أعود ..

* * *

وتُعدُّ نادية هانم نفسها للخروج ، ثم تنظر في ساعتها وتخرج وتهبط السلم إلى الدور الأول من الفيلا . تجد زوجها جالساً يقرأ الجريدة فيقول :

- خارجة ؟

- نعم . ذاهبة إلى أمينة ..

وينهض الزوج ويقترّب منها ويقول في شبه الهمس :

- انظري إذا كنت تستطيعين أن تقترضى منها شيئاً ... أنا أعرف أنه ليس بينك وبينها تكليف .

- ولماذا أقترض ..

- يعنى .. للبيت ، ثم لا بد أن نساعد طارق على شراء السيارة .. لا نستطيع إغضاب الولد .

- إنه ليس ولداً يا ماجد .. إنه رجل .. والرجل لا يرضى أن تستدين أمه لكي تشتري له سيارة ..

- يا نادية لا داعي للعناد .. خليها ماشية .. طارق بقى عليه ثلاث سنوات ثم يصبح طبيباً ويرد لنا بدل الجنيه جنيتها .

- لماذا تكذب يا ماجد ؟

- أنا أكذب؟

- هل أنت تعطينى كل إيرادك ... هل أنت تعطينى أكثر مما هو مبین
فی هذه الأوراق ..

- یا نادیه لا تدققی فی الأمر .. هذا بیت ولیست إدارة .. یا نادیه
هؤلاء أولادنا ... نحن نعطيهم الآن ويردون غداً .

- ومن قال لك أنني أربى أولادى لأننى أريد منهم شيئاً ..

- كل الدنيا على كده ... الأولاد عندما يكبرون ويكسبون لا ينسون
الأب والأم ..

أنت تعرف أنني لا أنتظر من أولادى شيئاً .. أنا أربيهم لكي
يصبحوا رجالاً ونساءً ويقومون بشق طريقهم بأنفسهم .. كل غرضى
أن يقفوا على أقدامهم فى الحياة .. أما أنا فسأعيش دائماً على ما عندى .

- يعنى لا تريدین أن تفهمینى أبداً؟ !

- وأنت ألا تحاول أن تفهم نفسك أبداً ..

- أنا الآن أطلب منك معاونة طارق ..

- وأنا أعاونه بحسب ما أرى ...

ويُفَتَح باب غرفة طارق ويخرج منها ويقول :

- دَعُها يا أبى .. أنا لا أريد منها شيئاً .. أنت ستشترى لى السيارة ..

إنها لا تهتم إلا بنفسها .. هذه ليست أمّاً .. لم أرَ فى حياتى أمّاً مثل
هذه ..

وتصلح نادیه هياتها وتخرج ...

* * *

obeikandi.com

[٤]

وصلت السيدة نادية إلى دار صديقتها أمينة زهدى فى دقائق لأنهما يسكنان فى شارع واحد والباب قرب الباب . وكانت أمينة تنتظر صاحبته خلف زجاج الشرفة المطلة على حديقة دارها الأنيقة . إنها تعيش هنا مع زوجها المهندس المقاول إسماعيل حمدى . كانا يعيشان هنا وحدهما ، فقد رزقهما الله بعد فترة عقم طويلة ولداً واحداً ذهب لدراسة الهندسة فى الولايات المتحدة ليعود ويحمل مسئوليات أبيه ، ولكنه لم يعد لأن الحياة هناك أعجبتة ، وكان هذا لا يُغضب أمينة وكانت تقول :

- ولماذا يعود ؟ لكى يحمل عبئاً من المتاعب يتزايد يوماً بعد يوم . إن أباه إسماعيل يقوم بأسهل المقاولات فى مصر ، إنه ينفذ مقاولات الشركات الأجنبية ومع ذلك فلا يتصور أحد متاعبه مع العمال والأسطوات . لو كان فى استطاعتنا أن نستورد عمالاً وأسطوات من أوروبا لفضلنا ، فهذا أسهل وأرخص . صحيح أن العامل فى أوروبا يتقاضى أكثر ولكنه على الأقل يعمل ما يُكف به ، أما عمالنا اليوم فعملهم الرئيسى الحصول على المال ، أما ما سيؤدونه فى مقابل ذلك المال فأمر لا يهم وليست لنا أى سلطة عليهم .

وتقول نادية :

- دعينا من ذلك الآن .. أريد أن تقولى شيئاً عن هذا العمل وعن دار الضيافة والمسترداداردز ...

- تريددين الحق؟ أنا لا أعرف أكثر من أنهم يريدون هاوس كبير للبيت ، وقد رشحتك لهم لأننى أعرف أنك تحسنين القيام بهذا العمل وأى عمل آخر . لا يوجد فى الدنيا إلا نادية واحدة ..

ثم نظرت فى ساعتها وقالت :

- المشوار من هنا لهنالك يستغرق نصف ساعة وعندنا ربع ساعة -
الآن قولى لى : ما الذى حدث وغير رأيك .. إننى لا أصدق نفسى.

وكانت أمينة أعز صديقات نادية ، فهما معاً من سنوات الدراسة وتخرجا معاً وبدأتا حياتهما العملية فى نفس السفارة ، ثم تفرقت بهما الطريق ، فأما أمينة فلم تترك عملها أبداً ، لأنها لاتسأل لا فى زوج ولا فى ولد ، وقد رزقها الله بزواج على شاكلتها ، فإسماعيل حمدى مهندس دقيق فى كل شىء ، وأعماله تستغرق يومه كله ، وهو لا يتلاقى مع زوجته ويعيشان معاً فعلاً إلا فى الليل ، لأن إسماعيل لا يفرغ من أشغاله إلا بعد الثامنة مساءً ، ولكنه لا يأخذ معه ورقة واحدة إلى بيته . إنه يترك العمل وكل مشاغله على عتبة المكتب ليسعد مع زوجته ، وكانا لا يعتادان أن يخرججا فى الليل مخافة أن يطلبهما ابنهما من أمريكا ، وكانت أسعد لحظات حياتهما عندما يسمعان صوت ابنهما من بعيد . وكانت أمينة تقول :

- هكذا أحب الأولاد .. من بعيد لبعيد ، وليس بينى وبينهم إلا خط تليفون .

وكانت نادية تتعجب من أمر صاحببتها وتنكره ، ولكنها الآن تقول لها :

- عندك حق يا أمينة ، الآن أنا أفهمك .

قلت لك هذا ألف مرة . إننى أفهم الدنيا أكثر منك .. إننا جميعاً نساء تربية أولادنا فنجعل أنفسنا خدماً لهم مع أن واجبنا حيالهم محدد : أن نربيهم على قدر ما نستطيع ثم نضعهم فى أول طريق الحياة وبعد ذلك ليس لهم عندنا شىء ولا لنا عندهم شىء ... ما عدا ذلك سوء تربية ونحن مسئولون عنها ... عندى هنا فى الحديقة قطة ، وهى تفهم فى الأمومة أكثر مما نفهم نحن . إنها ترضع أولادها حتى يستطيعوا الجرى ثم تتركهم وتنسأهم ، ولو اقترب واحد منهم منها بعد ذلك ضربته لأنها لو تركته لظل يرضع إلى الأبد ...

كنت أعرف ذلك دائماً ، ولكنى أرى الظروف الصعبة التى يعيش فيها الأولاد اليوم ... إنهم مئات الألوف يا أمينة يتسابقون على فرص حياة قليلة جداً .. فإذا كنا نستطيع أن نساعدهم بشىء فلماذا لا نفعل ؟ - يا نادية يا حبيبتي ، لقد تركتِ عملك . وانقطعت لزوجك وأولادك ، فماذا فعلوا هم ؟ سعادة البيه يعطيك أقل من نصف إيراده ويخفى الباقي . كلهم يفعلون ذلك ويرَوْن أنه حق لهم ، وربما كان ماجد أحسن من غيره لأنه على الأقل لا يلعب بذيله .. ومع ذلك فمن أين تعرفين أنه لا يلعب . الرجل منهم إذا خرج من البيت لا تعرف امرأته شيئاً مما يعمل أما هو فيفرض عليها ألا تخرج مجرد خروج إلا بإذنه .. - وزوجك إسماعيل .. ألا يلعب بذيله ؟

- من يدري يا حبيبتي ... ما دام الرجل له ذيل فلا أحد يعرف ماذا

يصنع به ، ومع ذلك فصدّقيني إن ذلك لا يهمنى الآن . كنت أهتم به وأنا صغيرة ، أما الآن فعندى بيتى ووظيفتى وابنى على الطرف الآخر من خط التليفون .

وتنظر نادية فى ساعتها وتقول :

- يا دوبك !

- كاد الحديث يشغلنى ...

* * *

ووصلت الصديقتان إلى دار الضيافة فى سيارة أمينة . وارتاحت نادية لمنظر البيت . إنه دار عظيمة أنيقة من عشرة طوابق ، وفى مدخلها حديقة صغيرة . وصعدتا إلى غرفة المدير فى الدور الخامس . كان فى انتظارهما . إنه رجل أمريكى طويل وسيم أشقر مكتمل الشعر فى خمسينات عمره الأولى ، استقبل نادية وصاحبتهما حَفِيًّا ، وعرض عليهما شراباً فاعتذرتا ، وطلبت نادية فنجاناً من الشاي ، وقال المستر ادواردز :

- أرى أنك تتكلمين الإنجليزية بطلاقة ...

- درستُها وعملتُ فى السفارات نحو عشر سنوات .

وقالت أمينة :

- وعملتُ معى فى السفارة أربع سنوات .

- ولماذا تركتِ العمل ؟

- أردت التفرغ لأولادى .. كانوا صغاراً ...

-والآن ...

- الحمد لله ، لم يعودوا بحاجة إلى .

- أى أنك تستطيعين أن تعطى عملنا وقتاً كافياً ..

- كل ما يتطلبه العمل .

- لقد اطلعتُ على ملف خدمتك فى السفارة ... إنه من أصغر الملفات ،

الملف الصغير ينبىء عن موظف جيد ...

- هذا يرجع إلى أننى عملت فى السفارة أربع سنوات فقط .

- ربما ... ولكن خبرتى الطويلة بالإدارة تجعلنى أعرف الموظف من

نظرة سريعة على ملف أوراقه ... المهم ، سنرى !

- هذا أحسن .. لأننى أظن أننى الآن أحسن بكثير مما كنت حينئذ ..

- هذا طبيعى ... ولعلك لم تنسى شئون الإدارة ...

- إننى أدير بيتى كما تدار أى إدارة ... كل شىء عندى مُدَوَّن ..

- حسناً .. أنا سعيد أننا وُقِّعْنَا إليك ، الفضل فى ذلك يرجع للسيدة

أمينة زهدى .. سأتفق معك على الأساسيات وأترك تفاصيل إجراءات

التعيين للمستر زكى هنا .. إنه إدارى كفاء منتدب من السفارة ... أبوه

أيضاً كان يعمل معنا .

وتقول أمينة :

- إنه ابن حسن أفندى وصفى مدير المستخدمين فى السفارة .. ألا

تذكرينه ؟

- طبعاً ... هل لا زال يعمل في السفارة ؟

- لا ، بلغ سن المعاش وأخذته السفير في داره ليتولى له شئونه الخاصة وكذلك شئون البيت .

قالت نادية : جميل منكم أن تهتموا برجالكم .

- علّمتنا التجارب ألا نأخذ الرجال من الشارع قط ، والشهادات لا تعنى شيئاً ، تستطيع أن تُعلّم إنساناً الحسابات وإمساك الدفاتر ، ولكنك لا تستطيع تعليمه الأمانة واحترام النفس ... لهذا رحبت بك لأنك من أسرة كريمة ومن أسرتنا . والمسئولية هنا كبيرة لا تنهض بها إلا سيدة تربّت على الاحترام في بيتها ... رشحوا لنا سيدة يونانية ، إنها تعمل في أحد الفنادق والشهادات فيها طيبة ، ولكن والدها حلاق في الفندق وكذلك زوجها .

ثم هزّ رأسه وقال :

- هذا لا يعجبني ..

وبعد لحظة قال :

- أريد أن أعرف ... هل تستطيعين المبيت هنا ؟

- هذا ضرورى ..؟

- لا ، ليس ضرورياً ، ولكنى في حاجة إلى شخص مسئول هنا بالليل ... هنا ينزل رجال محترمون جداً ولا نريدهم أن يتعاملوا إلا مع مسئولين على مستوى . لهذا أنا أبيت هنا ، لأن مستر زكى لا يستطيع المبيت .. وقد تعبتُ من المبيت خارج بيتى ، وتعبتُ من هذه المسئولية ..

- إذا كان الأمر كذلك فانا أستطيع المبيت ... أسرتى لم تُعَدُّ بحاجة مستمرة إلى .. الأولاد كبار الآن ويستطيعون العناية بأنفسهم .

- وأنتِ تستطيعين رؤيتهم في أوقات فراغك .. يمكنك ترتيب هذا الموضوع مع مستر زكى ..

- وهل مستر زكى هو رئيس هذا البيت؟

- قطعاً لا .. أنت ستكونين رئيسة كل شىء في هذا البيت ، ستكونين مسئولة أمامى فقط ، وأنا ممثل السفارة في هذه المسئولية ، وزكى وكل من معه سيكونون مرؤوسين لك .. هذا البيت كله سيكون مسئولية وأمانة بين يديك ، ولا تخافى هذه المسئولية فإن مستر زكى يليك في المسئولية ، وهو رجل مضبوط .. لقد أعددت لك عقد العمل ووقَّعته .. لم أحسب أتعاب مبيتك . على أى حال ، لك مسكن جميل جداً هنا ، إنها شقة لا بأس بها في نفس هذا الدور ... هنا سيكون مكتبك وعلى خطوات منزلك .. متى تستطيعين أن تبدأى العمل ؟

- من صباح الغد ..

- ممتاز .. ستجدين الشقة جاهزة .. سأحزم متاعى من الليلة ، لا أدرى كيف أشكرك .. انظرى في العقد قبل أن توقعيه .. سأتكلم فى التليفون حتى تقرأيه .. أضيفى إلى المرتب ثلثه فى مقابل العمل الليلي ، وللبيت ثلاث سيارات .. هذه أيضاً مسئوليتك . واحدة منها لاستعمالك.

وطلب رقماً فى التليفون ومضى يتكلم ومَضَتْ هى تقرأ العقد ،

بحثت بسرعة عن المرتب وابتسمت حين رأته ، بسرعة أضافت إليه الثلث وزادت ابتسامتها اتساعاً . أمينة أيضاً كانت تقرأ العقد معها وقرأت الرقم وقالت هامة : وقَّعِي العقد قبل أن يُغَيِّر رأيه ، وقَّعِيه ثم خذي نسختك واقراها في البيت .

وفرغ المستر ادواردز من مكالمته فقالت :

- هل أستطيع أن آخذ نسختي من العقد لأقرأها في البيت؟

- وقَّعِي الآن أفضل ..

- وقَّعْتُ !

- حسناً ... سأعمل لك نسخة بالتصوير لتقرأها في البيت ، هاتان النسختان ينبغي أن تسجلا وتختما في السفارة حتى يعملوا حساب المرتب . مرتبك يحسب من الغد .. غداً صباحاً تمرين علينا في السفارة لكي تنمى الإجراءات ونعمل لك بطاقة .. لا داعي لمسوغات تعيين فإن لك ملفاً قديماً عندنا .. ستجدين كل شيء جاهزاً في السفارة حوالى العاشرة صباحاً ، أريد أن أقدمك للسفير ، ثم تعودين إلى هنا وتبدأين عملك .

* * *

وصلت نادية إلى دار الضيافة وتسلمت عملها وجلست في غرفتها تنتظر زكى أفندى راغب أو المستر راغب كما يسمونه ، وظيفته مدير الشؤون المالية والإدارية في الدار ، ولكنه في الحقيقة مدير كل شيء هنا بعد نادية . في العقد قرأت أنها مدير البيت [هاوس مانيدجر] لا

مدبرة البيت [هاوس كبير] سرّها ذلك ووجدت فيه دليل تقدير ، لم تصدق نفسها . هذا المكتب أجمل وأفخر مكتب رآته في حياتها بعد مكتب السفير الذي كانت عنده من ساعة ، لقد أعطوه صورة تبين الأهمية التي يعلقونها على صاحب هذا المكتب . مكتب زوجها في الوزارة يختلف عن هذا ، مكتب زوجها في الوزارة يعبر عن الأهمية التي يراها هو في نفسه . لكى يشعر أنه وكيل وزارة طلب أن يضعوا له جهاز تكييف ومنضدة اجتماعات عليها جوخ أخضر وثلاثة تليفونات ، واحد منها مباشر مع الوزير . هذا التليفون لا يعمل أبداً ، ومن يوم أن أصبح وكيل وزارة مساعد لا هو طلب الوزير مرة ولا الوزير طلبه مرة ، ولماذا يحدث هذا أو ذاك ؟ الوزير هو الآخر عنده تليفون مباشر مع رئيس الدولة ولكنه أيضاً صامت . لم يحدث مرة واحدة أن طلبه رئيس الدولة ومن المستحيل أن يطلبه هو . ولماذا ؟

في غرفتها تليفون واحد لكل شيء . إنه جهاز أوتوماتيكي لا يحتاج إلى أن يتدخل في شئونه عامل سويتش يمسك بالجهاز في يد وبقرص الطعمية في الأخرى ، وهو لا يجد أى فرق بين الطعمية وما يسمونه بالتكنولوجيا .

وأتى المستر زكى سلّمها نسخة من كل مفاتيح البيت : مكتبها ومسكنها وباب البيت وباب الحديقة ومخزن التموين والمطبخ والأوفيس وغرفة التكييف المركزى وغرفة الطعام ومفتاح السيارة ، تسلمت كل شيء إلا مفتاح الخزينة . هذا رأث أن يظل دائماً في يد المستر زكى ، طافت بالبيت وقابلت كل الناس في مواقعهم ، تعجبت أن كل

الموظفين والعمال في مواقعهم وعلى استعداد للعمل . النظافة قاموا بها على نحو طيب جداً ، تساءلت : لماذا : لماذا يعمل المصري دائماً أحسن إذا كان رئيسه أجنبياً . لأنهم يدفعون أكثر ؟ ربما . ولكن العمال والشغالين يأخذون اليوم منا كل ما يريدون ومع ذلك فإن عملهم دون المستوى . هنا تذكرت ما قاله لها المستر ادواردز : إنها تستطيع أن توقع العقوبة التي تراها على أى مخطيء تحت يدها . والعقوبة هنا سريعة ، العامل لا يستطيع الشكوى لأن أكبر جزء من راتبه إضافيات وحوافز خارجة عن المرتب الأصلي ، ويمكن إيقافها فى أى وقت . هو الخوف إذن . الناس فى الدنيا كلها لا يعملون عملاً كاملاً إلا إذا خافوا . هناك من يعملون لأنهم يخافون من أنفسهم . هؤلاء يمنعهم الحياء من الإهمال والكسل والباقي يخافون عقاب الآخرين ، ما أقل الذين عندهم حياء ! هنا ابتسمت فقد عرفت لماذا تصرفت على هذا النحو . لقد أحست أن الحياء لم يعد موجوداً فى البيت ، زوجها وابنها فقدوا الحياء ، لا يستطيع إنسان عنده حياء أن يعيش مع ناس ليس عندهم حياء ، إنها هنا لتعيد الشعور بالحياء فى بيتها . عندما يعود الحياء تعود هى معه .

شكا لها مستر زكى من أن كهربائى البيت لا يأتى فى مواعده قط ، وعمله غير دقيق . تذكرت أن ثلاثة من مصابيح السلالم محترقة وأن أربع غرف تشكو من خلل فى النور ، وفى الممر بين غرفة التموين والأوفيس مصباحان محترقان . هنا لقيت الكهربائى . حياً «ست هانم» والسيجارة فى فمه . قالت :

- أوسطى خميس ، لماذا لم تغير المصابيح هنا ؟

- حاضر يا مدام .

- أقول لك لماذا لم تغيرها ؟

- لم أرها إلا الساعة .

وقال المستر زكى : لا يا خميس لقد نبهتُك ثلاث مرات .

فقال الاسطى خميس : يا مستر زكى وحياتك تبعد عنى .

- ولماذا يبتعد عنك ؟ ألسنت مرؤوساً له ؟ لماذا لا تنفذ أوامره . هناك

مصاييح كثيرة محترقة في هذا البيت وغرفتان تطلبان إصلاحات كهربائية من ثلاثة أيام .

- ياست هانم إحنا بنعمل اللي بنقدر عليه ، بنعمل اللي يرضى ربنا .

- نعم ، الذى يرضى ربنا ويرضى المستر زكى ويرضىنى .

- يعنى إيه يا مدام .

- يعنى أنت مهمل وغير مواظب ، وعندما تُكلمنى تنزع السيارة

من فمك .

- يعنى هى عسكرية ولا إيه؟

- أيوه عسكرية ، العسكرية نظام وأداء واجب وطاعة ..

- شوفى ياست هانم .

- أنا مش ست هانم أنا الريسة .

- شوفى ياست الريسة ، أنتِ لك علينا العمل ، أما حساب الوقت

بالدقيقة والثانية فهذا لا لزوم له .

- أنت الذى تقول : له لزوم أو ليس له لزوم ؟ أنت هنا لكى تنفذ ما أقول .

- إذن هو تحكُّم .

والتفتت نادية إلى زكى وقالت :

- زكى ، منذ متى يعمل معنا الأوسطى خميس ؟

- آخر الشهر تنتهى فترة الاختبار ثلاثة شهور .

- إذن أحضر لى ملفه فى غرفتى بعد المرور .

ثم تلفتت إلى من حولها وتقول :

- المرور انتهى اليوم . غداً فى الساعة العاشرة صباحاً يكون المرور ،

أريد أن أجد كل شىء كاملاً ونظيفاً . لا نقطة ماء على الأرض .

لا صنبور تالف . لا ذرة غبار على شىء أو تحته . من غد هناك مرور فى

الصباح وتفتيش بعد الظهر .

وفى غرفتها يجلس أمامها زكى وتقول له :

- من الآن يكون عندك ثلاثة دفاتر : دفتر مرور ، ودفتر تفتيش ،

لأدوّن كل الملاحظات التى نلاحظها ونسجّل العقوبات التى نُوقّعها .

- والدفتر الثالث .

أوامر العقوبات . من أصل وصورة من فضلك ، الأصل يبقى

عندنا والصورة تُعطى لمن نُوقّع عليه العقوبة والتنفيذ فورى ،

والخصم يكون من أول مرتب .

- والأوسطى خميس .

- أكتب في دفتر العقوبات قراراً بفصل الأوسطى خميس إبراهيم .
أعطه بقية حسابه واصرفه اليوم . لا أريد أن أراه هنا .

- إذا كنت وَقَعْتَ هذه العقوبة على خميس فأعتقد أن تهامى سائق
الميكروباس يستحق أكثر . إنه يتأخر دائماً على الناس ، وإذا ذهب إلى
مشوار فإنه لا يعود إلا بعد ساعتين .

- كم له في العمل هنا ؟

- سنتان تقريباً .

- وما أقصى العقوبة التى نستطيع توقيعها عليه ؟

- الفصل طبعاً .

- لا لزوم للفصل ، يكفى واحد في أول يوم .

- إذن عندنا الإيقاف عن العمل ثم الخصم من المرتب الإضافى أو

الأصلى .

- الأصلى هو الذى يستحقه بحسب لوائح العمل ، والإضافى هى

الزيادات من عندنا ، وهى ثلاثة أضعاف المرتب الأصلى .

- إذن هاخصم له أسبوعاً من الإضافيات . اكتب لى قرارات

العقوبات مُفَصَّلة ، أو تأتىنى بها في الدفتر من أصل وصورة .

- الحقيقة أن قرارات العقوبات تُعمل من أصل وصورتين .

- آه فهمت ، الثالثة تُحفظ في ملف الموظف .. عندك حق . الآن نمرُّ

على المطبخ والمطعم لتطمئننى على كل شىء ، ثم تأتيني بقرارات العقوبات لأوقعها . سأذهب الآن إلى سكنى هنا لأرتب أمورى . اتصل بى هناك إذا طلبنى أحد وخصوصاً المستر ادواردز والسفارة .

* * *

وأوتُ إلى شقتها الصغيرة . وجدت هناك كمريرة تسمى أنيسة . إنها المسئولة عن تلك الشقة الخاصة ، المستر ادواردز هو الذى اختارها إنها سيده فى أربعيناتها الأولى ، حسنة الشكل ولكنها لا تعتنى بمظهرها .

تقول لها نادية :

- هل تخسرين شيئاً إذا أنت اعتنيتِ بنفسك ...

- العمل كثير ياسيدتى ، وأنا أفرغ من هنا الساعة الثانية بعد الظهر .

- الواحدة ..

- نعم ، ولكنى أتغدى هنا ...

- تحسبى وقت الطعام وقت عمل .

وبعد لحظة صمت

- سعيدة أنت فى زواجك يا أنيسة ؟

- بصراحة .. لا يا سيدتى .

- زوجك ؟

- زوجى والولد والبنت .

- تشقين فى سبيلهم ولا يشكرون ...

- والله ياسيدتى إنى لا أنتظر الشكر .. لَيْتَهُمْ يَكْفُونِ عَنِ
السنتهم .

- ونقودك ضايعة عليهم أولاً بأول ...

- لا أستطيع ادخار شىء .

- وزوجك ؟

- إنه رجل طيب . وهو يعمل ما يستطيع .

- كم مرتبه ؟

- لا أعرف ، ولكنه يعطينى كل شهر ١٠٠ جنيه .. أحياناً يعطى
أقل .

- نفس الحكاية .

- ماذا تعنين ياسيدتى ؟

- أقصد أنها نفس حكايتى .. أنا أيضاً كانوا يعاملوننى فى البيت كما
يعاملونك ..

- أين أنا وأين أنت ياسيدتى .. يقولون أن زوجك وكيل وزارة قَدْ
الدنيا ..

- وكيل وزارة نعم ، أما قَدْ الدنيا فلا ..

- كل نساء مصر على هذه الحال ..

- نهايته .. وَضُبَّتِ الشقة ..؟

- كله تمام يا ست الريسة ..

- والحمام والمطبخ .. لا أريد نقطة ماء ولا ذرة تراب .

- اطمئننى ياسيدتى .

- دعيني الآن وانهبى إلى غرفتك .. انتهى من عملك وتعالى ..

سنتغدى معاً هنا في الساعة الواحدة .. سأتصل بالمطبخ وزكى أفندى .

وخرجت أنيسة وبقية نادية وحدها ، جالت بعدها في مسكنها الجديد . ما أجمله . قاعة الجلوس هي نفسها قاعة الطعام وبها فيراندا جميلة فيها نباتات خضراء وزهور . كل شيء في غاية النظافة ، مضت تضع ملابسها في الأدراج ودولاب الملابس وهي تفكر . قلبها مهموم . للمرة الأولى من ثلاث وعشرين سنة تقيم في مسكن غير بيتها بعيداً عن زوجها وأولادها . كانت تشعر وكأنها غصن انقطع من أصله ووقع على الأرض . كانت تحب زوجها ، إن ماجد رجل طيب ورؤوف ولكن ما العمل معه . إنه يحبها أيضاً . لم تكن تشك في ذلك . ولكنه مثل عامة الرجال تعود أن يدوس على المرأة دون أن يدرى ، الجو العام في بلادنا يفرض هذا الوضع على الزوج والزوجة ، وهو الذى يجعل الأولاد يتصورون أن الأم بالذات خادمة لهم ولا بد أن تقف خاضعة بين أيديهم ، هذا لا يحتمل ولا بد من رفضه . ولكن كيف ؟ هل يعقل أنها هذه الليلة ستنام خارج بيتها للمرة الأولى في حياتها ؟ إنها في حاجة إلى إنسان تتحدث إليه . تتصل بصديقها أمينة وتدعوها للغداء معها في البيت ، تشكو لها الوحدة . أمينة توافق فتبادر نادية وتبلغ أنيسة أنها لن تتغدى معها اليوم . لندع ذلك إلى الغد ..

حوالى الثانية عشرة والنصف يأتى زكى ، تكلم فى التليفون
فاستدعته وأقبل :

- يا ست الريسة لا تتصورين الذى حدث فى البيت بعد فصل
خميس ، الكل يرتعدون ، الذين كانوا قد فرغوا من أعمال النظافة
الخاصة بهم عادوا عليها ... شيئاً فشيئاً سيكون البيت كالساعة .

- مستر زكى .. من الذى يقوم بشراء حاجيات البيت؟

- هناك مُتعهِّدون لكل شىء .. هناك أشياء تاتى من نفسها كل يوم
وهناك أشياء نطلبها .

- أريد أن تأخذ رأى قبل أن تشتري أى شىء ، وأريد أن أحضر
استلام الطعام من المتعهدين ... عندنا هنا ميزان ؟
- طبعاً يا افندم .

- إذن غداً سنتسلم كل شىء ، وسنزن كل شىء ، وسنراجع
الأسعار ...

- أمرِكِ ياست الريسة .

- الساعة الواحدة إلا ربُعاً سأمُرُّ على المطبخ وغرفة الطعام . لا بد أن
نراها معاً قبل أن يدخل أحد من الضيوف .

- الكثيرون منهم يطلبون الأكل فى عُرفهم .

- العائلات وحدها لها هذا الحق .. أما النزلاء العاديون فالأكل كله
فى غرفة الطعام إلا الإفطار .. الساعة الواحدة والنصف ستأتى هنا
صديقتى أمينة هانم زهدى ، سأتغدى معها هنا .. احسب غداءها كما

تحسب غداء مَنْ يدعوهم النزلاء من الضيوف .

- إننا نأخذ جنبيين زيادة على غداء كل ضيف أو عشائه .

- هذا حق . إن إدارة البيت تتحمل جانباً من نفقات طعام النزلاء

ولكن الضيوف ينبغي أن يدفعوا الفرق .. هذا يسرى علىّ وعلى غيرى ..

وانصرف زكى وعادت إلى وحدتها ، كانت تشعر بوحدة قاسية ،

قلبها كله كان مُعلقاً ببيتها وزوجها وابنتها وابنيها . إنها لا تدرى ماذا

يحدث الآن هناك ، ولا تريد أن تعرف . لقد أعطتْ ابنتها سوزان خطاباً

إلى زوجها . سوزان لا تعرف أين هي ولكنها تستطيع الاتصال بها عن

طريق أمينة . اتفقتْ معها على أن تُكلمها الساعة الثالثة بعد الظهر

لتبلغها بأخبار بيتها وأولادها ، عادت إلى مكتبها لتشعر بكيانها ولتهرب

من وحدتها . أمسكت بالتليفون وأصدرت أمراً لركى . هذه الأوامر كانت

تبدد آلام الوحدة والبعد عن الأسرة . إنها تعويض .

في الموعد المحدد أتت أمينة . إنها كعادتها لطيفة طروب ، قالت وهي

داخلة :

- يا سلام .. شقة تشرح القلب ..

- ولكنى وحيدة يا أمينة .. أشعر بوحدة مخيفة . لا أتصور كيف

فعلتْ ذلك .. مَنْ يتصور أنني أهرب من بيتي على هذه الصورة ؟

- بدأتِ تضعُفين ..

أظن أنى ضعيفة من الأصل .. أخشى ألا أستطيع .. إن حنيني إلى

بيتى شديد .. وسوزان المسكينة كيف ستواجه الموقف .. وأحمد ، من

يُعْنَى به ثم نظرتُ في ساعتها ومضتُ تقول :

- مسكينة سوزان .. تركتها في مهبِّ العاصفة . عليها بعد قليل أن تعطى خطابي لماجد ... لا أدري ماذا سيقول .. لن يصدق أنها لا تدري ما في الخطاب ، ولن يصدق أنها لا تدري أين أنا ..
وأتى السفرجى بالطعام فقالت نادية :

- ضع الطعام كله على البوفيه ، نحن سنقوم بخدمة أنفسنا ، وعندما تنتهى سأناديك لتأخذ الأطباق ..
وضع الطعام في صمت ، فقالت أمينة .

- إذا كنت لا تستطيعين فلماذا أقدمت على ذلك ؟

- لم يكن من ذلك مَفْرُؤً .

- كنت تستطيعين العمل في الصباح وتعودين إلى بيتك بعد الظهر .

- في هذه الحالة أكون قد زِدْتُ الحالة سوءاً .. سيزيد طمُعهم نى ..

لم يكن أمامي إلا هذا الحل ، أريد أن يعرفوا أن عملي له قيمة . لست أريد أن أنتقم منهم أو أثبت أنني أعقل أو أكثر قيمة . أريد أن يتعلم ماجد كيف يحترمنى . ذلك ضرورى للبيت . من غير المعقول أن يكذب على ابنه أمامي . من غير المعقول كذلك أن يتصور طارق أننا ننفق عليه لكى يرد لنا ذلك عندما يتخرج ويعمل . هذا يجعله يطلب ويطلب بلا حدود على أساس أنه سيردُّ كل ما أخذ أضعافاً عندما يتحول الأب والأم إلى حُطَّامين محتاجين إلى مال الأولاد وإحسان الأولاد .. كل هذا خطأ يا أمينة ولا بد أن تصححيه لصالحهم هم أولاً ...

- ولكن لا بد أن تدفعى الثمن ..

إننى أدفعه .. أدفعه راضية .إنه صعب الآن لأن هذه هى البداية .
لا ينبغي أن أفكر فيهم هذا التفكير كله ، لا بد أن أنساهم وأذكر نفسى
فقط . لا تنسى يا أمينة أن تتصلى بسوزان بالتليفون لتطمئنى عليها .
قولى لها أننى سأتصل بها الساعة الرابعة . ستكون إلى جانب
التليفون .

* * *

في دار نادية يُخيمُ السكون . الساعة قرابة الواحدة بعد الظهر .
غرفة المعيشة ساكنة يخيم عليها صمت عميق ، ماجد جالس على كرسي
وثير إلى جانب منضدة صغيرة عليها مصباح وتليفون . إنه يمسك بيده
ورقة ينظر إليها بين الحين والحين ثم ينظر في الفضاء نظر من لا يفهم ،
ابنه طارق يُقبل إليه من حجرته ويجلس على كرسي قريب منه ثم
يقول :

- وماذا سنفعل ؟

ويهزُّ الأب رأسه في يأس ويقول :

- لا أدري .. لا أدري .. إننى لا أفهم شيئاً .

- ما الذى لا تفهمه .. لقد تركتُنا ومضت ..

- إلى أين ؟ إلى أين تمضى نادية وتركتنا ؟ بعد ثلاثٍ وعشرين سنة

من الزواج ، وبعد أن أنجبنا ثلاثة أولاد وأنشأنا هذا البيت تتركنا هكذا

وتمضى دون أن تقول حتى إلى أين هى ذاهبة .

ويصلصل جرس الباب ويقول ماجد :

- ها هو قد أتى .. أخى الدكتور محمود ..

- لماذا أتى في هذه الساعة ؟

- أنا كلمته وحكيْتُ له الأمر ، وطلبتُ إليه أن يأتى ..

- ولماذا يأتى عمى الدكتور محمود ويتدخل فى شئوننا ؟ ألا تعلم ما بين ماما وزوجته إحسان هانم .

- إننى غرقان يا طارق .. غرقان يبحث عن أى شىء يساعده على النجاة .. إننى لا أستطيع التفكير .. هل تستطيع أنت ؟

وينهض ماجد ويفتح الباب ، الدكتور محمود الذى يدخل الآن طبيب فوق سن الخمسين بقليل ، إنه رجل جادٌ حسنُ الهيئة ، إنه طبيب أمراض نساء .. يحيى أخاه وابن أخيه ثم يقول :

- إيه .. ؟ جرى إيه ؟

- خذ يا سى محمود اقرأ الخطاب الذى تركته لنا الست .. اقرأ بصوت عال لعلنا نفهم معاً شيئاً .

محمود يتناول الخطاب وينظر فيه ، ثم يضع النظارة على عينيه ويقول :

- اطلب لى قهوة والله يا ماجد ، لقد أتيت من العيادة الآن . ما كدتُ أصل حتى أتانى تليفونك .. أكلتُ فى دقائق ثم أخذت سيارتى وأتيت .

وينظر طارق إلى عمه نظرة احترام عميق ، إنه يحسُّ أنه طبيب مثله ويرجو أن ينجح نجاحه لأن الدكتور محمود من أنجح أطباء أمراض النساء فى مصر ، ويأتى عم إمام بالقهوة ويقول :

- سعادة الببىه ؟ عاوزين حاجة قبل أن أمشى ..

- أبَق معنا اليوم يا عم إمام ..

- تأخرتُ ، الساعة الآن الثالثة .. أولادى يقلقون على ... إذا كنتم لا تريدون شيئاً الآن مضيت وأعود من صباح الغد .

- عندنا عشاء ...

- أيوه يا افندم .. الست أعدت طعام ثلاثة أيام ووضعته في الثلاجة قبل أن تمضى .

- ومتى عملت ذلك كله ؟

- قالت لى أنها صحّت من الثالثة بعد منتصف الليل .. عندما أتيت في الثامنة صباحاً كانت قد انتهت من كل شيء وأعطتني تعليماتها ..

- وما هي تعليماتها ؟

- قصدي بالنسبة للمطبخ والأكل ، وقد أمرتني بأن أظل معكم مهما حدث .

- كتر خيرها ياسيدي .. زهبتُ وتركتُ لنا عم إمام مع التعليمات .
فقال الدكتور محمود :

- إذا لم تكونوا بحاجة للرجل فدعوه يذهب .. نريد أن نتحدث .

وقال طارق :

- طيب اذهب أنت ياعم إمام .. ستأتى الساعة الثامنة من صباح الغد ..

- بمشيئة الله يا سعادة البية - السلام عليكم ..

ويمضى عم إمام ويغلق الباب من خلفه ، وينظر ماجد إلى أخيه محمود ويقول :

- اقرأ الخطاب إذن يا محمود ..

- قرأته بسرعة .. لا بد أن أقرأه الآن بتؤدة ..

- إذن فاقراً بصوت عالٍ لكي نستطيع التفكير معاً .

ينظر محمود في الخطاب ويقول :

- لقد كتبته بعناية وإتقان .. شأنها في كل شيء ..

- هذا يدل على أنها فكرت في الأمر طويلاً ...

- مؤكّد .. تصرف كهذا لا يصدر عن سيدة مثل نادية إلا بعد تفكير

طويل ..

- إننى أعرف حبها لبيتها وأسرتها ... أنت تعرف أننى أعتبرها من

أحسن سيدات مصر ..

- نقرأ الخطاب أولاً ...

- اقرأ ياسيدى ...

ويُفرغُ محمود بقية فنجان القهوة ويشرب شيئاً من الماء ، ويُثبّتُ

النظارة على عينيه ويقرأ :

أعزائي

ما كنت أفكر يوماً أننى سأترك هذا البيت إلا بالموت ، ولكن المعاناة

تكون أقسى من الموت أحياناً ، لا أدري إن كنت على حقّ حينما فعلت ،

ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذى كنت أستطيع عمله . عندما تحسُّ

المرأة أنها فقدت احترامها في بيتها لا يبقى أمامها إلا أن تستكين أو تترك

البيت إذا استطاعت . الكلام الذى سمعته منكم أخيراً وتصرف طارق
معى وتأبيدك له يا ماجد يدل على أنه لم يَبْقَ لى فى هذا البيت ما عمله .
ولم أعد أستطيع الصبر وأنتم تعرفوننى ، عندما أجد ابنى يشكُّ فى
ذمتى لا يبقى للأومة مكان كبير ، والزوج عندما يكذب لكى يستدرِّ
عطف الابن على الأم يكون ذلك إيذاناً لأم بأن تترك مكانها ، الحمد لله
طارق الآن فى المرحلة الأخيرة من دراسته ، وهو رجل ويعرف كيف
يسير فى طريقه . وأنت يا ماجد بخير والحمد لله والبيت لا ينقصه شىء ،
وإذا أنت أنفقتَ على هذا البيت كل إيرادك كما تقول استطعتم أن تسيروا
بدونى . لا تخافوا على فأنا بخير ، وأعرف كيف أسير وحدى فى حياتى
ما دُمْتُ قد استرجعت كرامتى التى كِدْتُ أفقدها ، لا تضايقوا سوزان
فهى لا تعرف أين أنا . أنا سأتصل بها دائماً لأننى لا أستطيع تركها .
إنها الوحيدة هنا التى فهمتنى ، ربما لأنها امرأة مثلى . خذوا بالكم من
أحمد . إنه أمانة عندكم وعلى رغمتى تركته ، بعيداً عن هذا البيت أظن
أننى سأعيش لأساعده فيما بعد ، أما إذا كنت بقيت فلا بد أنه كان
سيحدث لى شىء وأتركه بلا أمل . كان عندى ١٨٢ جنيهه هى كل ما
تبقى لى من ادخار العمر ، أعطيت سوزان خمسين وأخذت أنا ٣٢
والباقى أتركه لك يا ماجد لتدبر به شئون البيت . لا تنسوا دفع اشتراك
النور والتليفون وراتب عم إمام أول الشهر والله يرعاكم ، سأطمئن
عليكم من بعيد ، المخلصة نادية .

وينزل الدكتور محمود الخطاب وينظر إلى أخيه مَلِيّاً ثم يقول :

- دى حكاية كبيرة ...

- ماذا تقصد ..؟

- أقصد أنني أتيتُ أحسب أنها خناقة عادية كالذى يحدث بينى وبين إحسان ، فهي كثيراً ما تغضب وتخرج وتمضى إلى بيت والدتها وتظل أياماً ثم أرضيها وتعود :

- ولكن نادية لم تفعل ذلك مرة واحدة ..

- لهذا أنا أقول لك إنها حكاية كبيرة وخطيرة حقاً..

- يعنى إحسان هانم تغضب وتخرج وتذهب إلى بيت أمها وتعود مرة بعد أخرى ، ونادية من أول مرة تخرج تقوم أنت تقوللى إنها مسألة خطيرة .

- هناك فرق كبير بين نادية وإحسان ، إحسان زى ألوف الستات اللائى تراهنّ من حوك : يتزوَّجنَ لكيلا يبقينَ عوانس أو لأسباب مالية . أنت تعرف الكفاية عن إحسان وزواجى منها ، زواج ضرورة . لا أدرى لماذا تزوجتها هى بالذات . كان من الممكن أن أتزوج أى بنت أخرى ، وكان من الممكن أن تتزوج هى أى رجل آخر ، وما كان الأمر يختلف كثيراً عن الحالة اليوم . أنا عندى ممرضة تقدّم لخطبتها اثنان : واحد مرتبه ٩٠ جنيه والثانى مرتبه ٩٥ جنيه . تزوّجتُ الثانى . تسعون فى المائة من الزيجات من هذا النوع ... لكن نادية لا ، نادية حاجة تانية . كان زواجكما زواج حب وحكاية طويلة أنت تعرفها ، لكى تصنع نادية ما صنعت لا بد أن تكون قد وصلتُ إلى النهاية ... ولم تُعدُ تستطيع أن تحتمل أكثر .. لهذا أنا أقول لك إنها مسألة خطيرة .

فقال ماجد فى لهفة :

- ماذا تعنى ؟ نادية لن تعود إلينا .

- هذا يتوقف على سبب خروجها .

- السبب خناقة بسيطة ... مناقشة عادية .

ومن أعلى السُّلم ، من الطابق الثانى تقول سوزان :

- لا يا أونكل محمود ... ليست مناقشة عادية أو خناقة بسيطة .

ويقول الدكتور محمود :

- سوزان ... لم أكن أعرف أنك هنا ... كيف حالك ياسوزان .. ماذا

جرى لكم ؟

وتنزل سوزان السلم وتُسَلِّم على عمها ، على وجهها علامات حزن

شديد وفى عينيها بقية دموع . تحبى عمها وتجلس ويقول :

- خير يا سوزان ... ماذا حدث ؟

- الذى حدث أن والدى لم يفهم أمى قط .. ماما يا أونكل كل يوم

تنهض من فراشها مع الفجر . الساعة الخامسة والنصف صباحاً

تجدها فى المطبخ . تُعِدُّ لنا كل شىء ، عندما يأتى عم إمام الصبح يكون

كل شىء جاهز .. كل منا يجد إفطاره على المائدة .. كانت تطبخ بيدها

كل شىء ولا تدع إلا أقل شىء لعم إمام ... حتى الشراء من الخارج

كانت تقوم به .. وكان عندها ألوف أنفقتها علينا دون أن تقول شيئاً .

كانت سعيدة بذلك .. وفى النهاية والدى قال لها إنه لا يثق فى حساباتها

... اتهمها بالكذب .

ويقول ماجد محتجاً :

- أنا لم أقل ذلك .. طارق هو الذى قاله ..

- وأنت أيدته ، وأكذت كلامه .. كانت تكتب كل شىء تنفقه ، وبقي لها فى النهاية حوالى ١٨٠ جنيه قسمتها بيننا ومضت .

- وأين هى ؟

- لا أدرى .

- ولا فكرة عندك ؟

- ولا فكرة ... هى رتبت كل شىء بهدوء .. أنت تعرف ماما .

- وهل أنت خائفة عليها ؟

- طبعاً ... ولكنى كنت خائفة عليها هنا أكثر ... إنها لا تتحمل

الإهانة .. وسوء المعاملة ..

ويقول ماجد :

- مافيش إهانة أو سوء معاملة .. كلها كلمتان قالهما طارق ..

ويقاطعه طارق :

- وأنت ألم تقل شيئاً ...؟

- يعنى ... أقل منك بكثير .. المهم إنه كله كلام قيل فى ساعة غضب ،

وكلام الغضب لا معنى له ..

وتقول سوزان :

- بالعكس ... ماما تقول إن الإنسان عندما يكون غاضباً يقول

حقيقة ما فى نفسه ... هذه هى الحقيقة .

ويقول ماجد :

-والعمل؟

- لا أدري ...

- أنا أقول ... إننا نبحث أين هي ، ثم يذهب طارق ويعتذر لها .

ويقول محمود :

- لا أظن .. نادية ليست من الصنف الذى يغضب بكلمة ويرضى

بكلمة .. هذا الخطاب لا يصدر إلا عن تفكير طويل ... المسكينة كانت

تعانى فى صمت ..

- ونحن لا نعانى .

وتقول سوزان :

- لا ... لا أنت ولا طارق ، الذى يزعجكم الآن أنكم تخافون ألا

تجدوا من يخدمكم أو يُعنى بأمركم .

ويقول طارق فى عصبية ..

- أنا لا أفهم لماذا كل هذا الغضب ... لو رأيتم ماذا يفعله صاحبي

نور سلامة مع أمه زكية هانم ... إنه يعاملها معاملة أقسى من ذلك ،

ومع ذلك تحبه ، وبكلمة منه تنسى وتبتسم . وقد اشترت له سيارة ...

ويقول محمود :

- نحن الآن ليس أمام حالة زكية هانم .. نحن أمام حالة نادية هانم

دى حاجة ، ودى حاجة ..

ويقول طارق :

- حاجة ثانية إزاي ..؟ ما الفرق بين نور وبينى .. لماذا تحبه أمه وأمى لا تحبني؟

ويقول محمود :

- الآن فهمت لماذا ذهبت نادية ... إنك ياطارق لم تفهم أمك أبداً ... نادية هانم فعلت في سبيلك أضعاف ما فعلته أية أم أخرى لابنها ... هذه هي الأم التي تعمل في صمت .. أما الست زكية والست بهية فلهنَّ طريقة أخرى في التعبير عن الحب : الدموع ويا حبيبى يا بنى ، ويا ضناى يا ابنى .

ويقول ماجد في ضيق :

- اسمع يا أخويا يا محمود .. هذا ليس وقت فلسفة .. هذا الكلام إذا كان فيه نفع لانتفعتُ به في بيتك ومع زوجتك .. ولكننا نحن الآن في مشكلة .. في أزمة وعاوزين حل ..

- رأيى أنا ... الآن لا حل ... لا حل الآن أقصد .. نادية لن تفكر في العودة الآن ... لقد خرجتُ لهدف .. ولن تعود إلا إذا تحقق لها ما تريد .

- وما الذى تريده ..؟

- أعتقد أن الذى تريده هو أن تكون في بيت يعرف قَدْرها ويفهم تفكيرها ... أنت تريد أن تقارن نادية بزوجتى إحسان؟ نادية أنفقت آخر مليم عندها في هذا البيت دون أن تقول شيئاً ، أما إحسان فلا تخرج قرشاً من فلوسها ولو انقلبت الدنيا - مثلها مثل زكية وبهية .. كل ما تأخذه منها بكاء أو طول لسان أو طلبات ..

- المهم يا محمود .. إن عندنا طالب في الطب عايز عناية ..

- ويعنى إيه طالب الطب ، وإيه العناية التى تطلبها له ؟ أنا طبيب من عشرين سنة وأعرف دراسة الطب ومطالبها ... نحن نعيش فى أوهام يا ماجد ، وهؤلاء الأولاد بيتزونا .. أنا عندى كريم فى سنة ثالثة طب .. فهل أتصور أنه يستعبدنى لأنه فى السنة الثالثة فى كلية الطب؟
ويقول طارق :

- يا عمى ، أنت تنسى أن كريم سيصبح طبيباً بعد سنتين .

- سيكون طبيباً لنفسه . هل تظن أنه سينفق علينا عندما يتخرج ؟

- ليس المهم أن ينفق .. المهم أنه سيكون طبيباً ، وسيُشرف العائلة .

- دَعَكْ من هذا الغرور .. وإذا أصبح ابنك مدرساً أو مهندساً أو محامياً ، ألا يُشرفك ذلك ؟.. إننى أعرف نادية وربما أكثر منك - إنها عزيزة النفس ، وقد أعطتكم كل ما لديها فلم تجد عندكم تقديراً .

ويضيق صدر طارق بهذا الكلام فيقول :

- أى تقدير هذا الذى تعنيه يا عمى ، إننى أحب أمى وأحترمها ؟

- على طريقتك ، فأنت تتصرف معها وكأنها خادمة لا أم . أنت تأمر

وهى تطيع . وهى تعطى وأنت تأخذ ، وهذا صحيح بالنسبة لأمهات

كثيرات ممن ينتظرن من أبنائهن شيئاً بعد أن يفرغوا من دراستهم ...

ولكن نادية لا تنتظر منكم شيئاً .. وقد قالت لك أكثر من مرة أمامى إنها

لا تنتظر منك شيئاً بعد أن تتخرج . إنها تقوم بواجبها نحوك لأنها

تحبك ، وخدمتها إياك تعبير عن هذا الحب ولكن لا أنت ولا أخى ماجد

فهمتَ ذلك .. وفى كل مناسبة تقول لها : انظر ما تفعله أم عصام

عاشور وأم نور سلامة ! وكم قلت لكم : إن نادية ليست كهذه أو تلك ...

ويقول طارق :

- صدّقنى يا عمى إننى لا أفهم .. ماذا كان المطلوب منى : أن أخدمها أنا ، أن أطبخ طعامى وأرتب حجرتى بنفسى .

وتتدخل سوزان :

- لا يا سى طارق .. يا دكتور .. كان يكفى أن تحترمها .

- وأنا لا أحترم أمى .

- طبعاً أنت تحترمها .. ولهذا فقد قلت أنها تُزوّر الحسابات .

- يا سوزان كانت غلطة .. كانت كلمة نطق بها لسانى دون وعى .

ويقول الدكتور محمود :

- على أى حال .. لقد حدث ما حدث ، فلننظر كيف نُدبر أمرنا ..

ويقول طارق :

- خلاص البيت مسئول من سوزان .. وما دامت متحمسة لمأما إلى هذه الدرجة فستحلّ محلّها فى هذا البيت .

وتقول سوزان :

- طبعاً .. خادمة ذهبْتُ وتحلّ أخرى مكانها .. لا يا سى طارق ..

أنا طالبة فى الجامعة مثلك .. سأخدم نفسى وأخى أحمد .. أما أنت فتدبر شئونك ..

ثم تنظر إليه طويلاً وتقول :

- مافيش فايده .. إنكم لن تفهموا المرأة قط .. رغم الدراسة والعلم

لا زالت المرأة عندكم خادمة .. لقد كانت أمانة تعانى ولا أحد منكم يحس .

ويقول الدكتور محمود :

- اسمع يا أخى ماجد .. نادبة خرجت ولا يدري إلا الله إن كانت ستعود ، امرأة مثلها لا يمكن أن تُقدّم على هذا التصرف إلا وهى تعلم ماذا ستفعل ، أنا واثق أنها بخير .. فاهتموا أنتم بأنفسكم وبيتكم .

ويقول ماجد :

- يعنى أترك نادبة تخرج من بيتى وحياتى هكذا دون أن أهتم .. إنها زوجتى وأنا أحبها يا محمود ... إنها حياتى كلها ..

- هذا صحيح .. ولكنك نسيته زمناً طويلاً .. أنت تذكره الآن ! أرجو ألا يكون الأوان قد فات ... لا تهتم بموضوع الفلوس .. أنا أخوك ، لا تنسى ذلك .

* * *

فى الساعة الرابعة بعد الظهر تتصل نادبة بابنتها سوزان . فى هذا الوقت كان الدكتور محمود قد انصرف وطارق ذهب ليتغدى عند أحد أصدقائه وماجد تناول غداءه ، وعم إمام قد انصرف . سوزان تتناول سماعة التليفون . لا تكاد تسمع صوت أمها حتى تنفجر باكية . نادبة تبكى أيضاً ، وسوزان تقول :

- كده يا ماما تسيبيننا وتمشى .

- تريدين أن أعود إلى الحالة التي كنتُ عليها يا سوزان .
- لا يا ماما .. هذا مستحيل .. إننا الآن غرقي ، ولكننا كنا أيضاً غرقي وأنتِ هنا ، وأنتِ على حق في كل ما فعلتيه .
- وأحمد .. كيف حال أحمد .. إنه وصيتك يا سوزان .
- لقد قلت له إنك ستعودين بعد أيام . المسكين بكى كثيراً .. إنه لا يفهم .
- كوني إلى جانبه يا سوزان .. إنكِ مكاني بالنسبة له .
- وأنتِ يا ماما .. من أين تتحدثين .. عامله إيه ؟
- لا تخافي عليّ يا سوزان ، أنا بخير وحالتي المادية أحسن بكثير ولكنني أعانى ربما أكثر من أى واحد منكم ، إن احتمال الذل والإهانة مستحيل ... كيف حال طارق ؟
- كما هو ... نفس الغرور ..
- وماجد .. ؟
- إنه مثله .. لم يستوعب بعد ما حدث .. إنه تايه والدكتور محمود كان هنا .. بابا استدعاه ..
- وماذا قال محمود ؟
- إنه بمعك على طول الخط ..
- أخذتِ الفلوس ؟
- نعم ..
- إنها لك ولأحمد .. إعطه منها ما يحتاج إليه ..

- ولكن يا ماما .. أين أنت؟

- يُستحسنُ ألا تعرفي الآن .. يكفي أن أقول لك أن أحوالي جيدة جداً.

- عُدتُ إلى العمل؟

- نعم ..

- سكرتيرة في سفارة؟

- حاجة زى كده ..

- أين تعيشين؟

- في شقة جميلة ..

- عند طانط أمينة؟

- لا .. في شقة خاصة بى ..

- أعطيني العنوان يا ماما .. لا بد أن أراك ..

- مش دلوقت .. قريباً جداً ..

- إننى أحس وكأننى أموتُ بدونك ..

- وأنا أيضاً يا سوزان .. إننى أموت بعيداً عنك وعن أحمد بالذات

ولكن الحرية لها ثمن والكرامة لها ثمن ..

- ولكن هذا ثمن غالى جداً يا ماما ..

- لا يوجد حل آخر يا سوزان .. لو انتظرتُ بعد الذى حدث

لداسونى بأقدامهم .

- عندك حق .. ولكني لا أستطيع يا ماما .. مش قادرة ..

- لا بد أن تقدرى .. أرجو أن تساعدنى يا سوزان ... هذا الضعف يزيد عذابنا ولا ينفعنا ..

- طيب اعطينى تليفونك على الأقل ..

- ليس الآن يا سوزان ..

- إذن كُلمينى فى الليل .

- سأكُلمك الساعة التاسعة ، خذى التليفون فى غرفتك ، وخذى بالك من البيت . عم إمام ، إنه رجل طيب جداً .. حذار أن تسيئوا معاملته أو يجرح طارق إحساسه ... قومى أنت بالحساب معه واعطه كل ما كنت أعطيه ... أنت الآن مسئولة عن البيت .

- ما تخافيش يا ماما .. قلبى معك ..

- وقلبى معكم كلكم .

ووضعتُ السماعه ، واعتمدتُ رأسها بين كفيها ومرفقيها على المنضدة وغاصت فى أفكارها ، وعلى المنضدة تساقطت دموعها .

ودقَّ جرس التليفون الداخلى ، المتكلم هو زكى أفندى ، أو المستر زكى إنه يبلغها أن شركة الطيران اتصلت به وأبلغته أن وفد رجال الزراعة الأمريكيين يصل بعد غد . أفراده خمسة أساتذة ونساءهم ، تقول :

- مستر زكى ، هات ملف هذا الوفد وتعال إلى غرفتى .. أو أقول لك :

انتظرني أنتَ في مكتبك . سأمر أولاً بقاعة الطعام والمطبخ ... قُل لي
يا مستر زكي .. شغل الجنائني مش عاجبني .. هل هو موجود ؟
- موجود يا افندم .

- إذن انتظرني في الحديقة .. دقيقتان وسأكون عندك .

* * *

obeikandi.com

بعد نصف ساعة من التجول في الحديقة والنظر في النباتات والأشجار ، وبعد الصعود إلى أدوار الدار حيث كانت هناك نباتات في كل مكان قررت نادية فُصل البستاني ، وأمرت زكى بتصفية حسابه وأن يطلب من رئيس البستانيين في السفارة بأن يختار لهم بستانياً جديداً ويرسله بعد غد على الأكثر . إلى ذلك الحين ستولى نادية كل نباتات البيت بنفسها . واحتج البستاني ثم بكى واستعطف ، وتدخل بعض الفراشين ولكن قرار نادية نهائى . لاحظت أيضاً أن مدخل البيت ليس على ما ينبغى من النظافة ولافتة البيت عليها بعض التراب فأذرت البوابين ، وقالت إنها ستنظر إلى البوابة بعد الظهر ، فإذا لاحظت أى شىء فصلتُ البوابين ، وصعدت إلى مكتبها بعد أن طلبت من زكى أن يوافيها هناك مع ملف الوفد الأمريكى . وعششت في البيت كله رعدة ، من الخدم والعمال في المخازن أسفل الأرض إلى المسئولين عن الأدوار والغرف يسرى في نفوسهم خوف . في لحظات قفز كل منهم إلى موقع عمله . وبدأت عملية شاملة : مراجعة وترتيب وتنظيف وتلميع .

ورُتبتُ نادية كل شىء فيما يتعلق بالوفد مع المستر زكى : استقبال الوفد في المطار وتخصيص غرفة لكل زوجين في طابق واحد وسيارة ميكروباس للوفد أثناء إقامته ومندوب لمرافقة الوفد وتلبية طلبات أقراده ، والمندوب هو تادرس زكى ابن زكى أفندى فهو شاب ذكى نشيط يتقن اللغة الإنجليزية ، وهو مُهذَّب جداً .

وبعد العودة إلى مكتبه اتصل زكى بالمستر ادواردز وبلغه كل شيء ، وبيّتسم المستر ادواردز بعد أن يضع السماعاة ويقول لصديق :
- ويقولون إن مصر بلد مُتخَلَّف . مصر لا يمكن أن تكون متخلفة ،
هناك بعض المصريين مُتخَلَّفون كما في الولايات المتحدة نفسها ، ولكن
مصر لا تخلو أبداً من ناس يسايرون الزمن . نادية واحدة منهم وهنا
كثيرون غيرها مثلها هؤلاء هم المقياس .
ويَهْزُ صديقه الإنجليزي رأسه ويهز كتفيه ولا يقول شيئاً .

* * *

ماجد توفيق صادق في مكتبه في الوزارة . الزوار كثيرون والتليفون
لا يسكت ، ومديرة مكتبه وهى سيدة محجبة سميحة تشغل نفسها
بالتريكو وهى نادراً ما تعرف شيئاً ، لكى تحضر ملفاً تغيب نصف
ساعة . كل خطاب تقدمه للإمضاء حافل بالخطأ فى كل شيء لأن كاتب
الماكينة مُوزَع عليهم من القوى العاملة ، وماجد وكيل وزارة مساعد فى
وزارة الاقتصاد ، ولكن عمله نادراً ما يمس الاقتصاد ، كل ما يتصل
بالاقتصاد فى يد السيد الوزير وبقية الموظفين لا يعرفون شيئاً .
هناك وكيل أول وتسعة وكلاء مساعدون وماجد واحد منهم ، إنه وكيل
الوزارة المساعد لشئون المؤتمرات ، والمؤتمرات كلها يحضرها الوزير
وأسفاره لا تنتهى . فى كل سفريّة تعلن الصحف أن مصر وقعت اتفاقاً
توفّر بمقتضاه كذا مليوناً من الدولارات ، والمشاريع ملفات والاتفاقات
ملفات . والملفات فى الأرشيف يعلوها التراب ، ورصيد مصر من ديون

الدولارات يتعالى ويزداد ، ولكن لا بأس ، فسيادة الوزير سعيد ،
وما دام سيادة الوزير سعيداً فلا شيء في الدنيا يُهمُّ ...

ويدخل على ماجد صديقه عز الدين قطامش . إنه أيضاً وكيل
مساعد ، ولكنهم أخذوا منه اختصاصاته كلها فهو وكيل مساعد متنقل
من غرفة لغرفة ، وليس عنده أى عمل ، ومكتبه لا يحمل ورقة واحدة .

ويقول عز الدين قطامش :

- قلت : ما دام ماجد لا يسأل فأسأل أنا ..

- أهلاً عزَّ .. جئت في وقتك ..

- خيراً .. هل هناك أخبار من نادية .

- لا شيء وأنا سأجنُّ ..

- إننى لا أفهم نادية هانم ، ولا مؤاخذة .. أظن أنها جنت .. مراتى لا

تصدق ..

- وهل هذا معقول يا عز ... بعد ٢٢ سنة زواج تترك نادية زوجها

وبيتها وأولادها ؟ ولماذا ؟ بسبب مناقشة عادية جداً معى ومع طارق .

- يا سلام ... وماذا فى المناقشة .. كم من مناقشة تجرى بينى وبين

سميرة ... ومع ذلك فلا شيء يحدث ..

- وأين فى السيدات مثل سميرة زوجتك .. هادية وأميرة .. وكفاية

إنها تحتملك .

- ولكننا مُتعبون جداً مع الأولاد يا ماجد .. اشتريتُ لكل منهم

سيارة .. وبرضه مش عاجبهم .. كل واحد منهم عنده ستريو فى غرفته

والآن يريدون فيديو كاسيت .. هل تعرف ما ثمنه ؟

- وأنت ما يهمك .. أنت وكيل الوزارة للاتصالات الخارجية ...
وفرخة في كشك عند السيد الوزير ... وشركات مصر كلها تحت
إشارتك .. سيارات وتليفزيونات وسفریات وسهرات .. وسرمحة على
الأخر ودنيا ...

- لا والله يا ماجد ... أنا مظلوم .. السنة الناس ، ربنا يحميننا من
السنة الناس وعيون الناس .

- ويحمى منك زوجتك ... المسكينة الصابرة .

- برضه لا زلت تعطف على الزوجات .. ؟ بعد الذى فعلته معك
نادية لا زلت تأسى لحالهن ! تصدق بالله يا ماجد .. ليست فيهن
واحدة تستحق العطف .

ويفكر ماجد طويلاً ثم يقول:

- لا يا عز .. يبدو أنني أخطأت في حق نادية خطأ لم تستطع هي أن
تغفره لى .. لقد كنت أحبها حب الجنون قبل أن أتزوجها .. حَفِيَتْ قَدَمَايَ
حتى وافقت على الزواج منى ..كنت أيامها موظفاً صغيراً ، وكانت هي
تعمل في سفارة السويد قبل أن تنتقل إلى السفارة الأمريكية ... كانت
تملك سيارة وكنت أتعلق بسيارات الأتوبيس ، ولكنها أحببتني كما
أحببتها ، ثم تزوجنا . وفي اليوم الأول لميلاد ابننا طارق استقالت من
عملها . كان مرتبها إذ ذاك ٢٥٠ جنيهاً في الشهر ... هل تتصور
٢٥٠ جنيهاً شهرياً سنة ١٩٧٠ ؟ وهى التى حصلت لنا على مسكننا في
جاردن سیتی التى ورثته عن أبيها ، وبعد الزواج حملت هى العبء

كله .. عندما أذكر ماذا كنت أفعل خلال السنوات الأولى لزواجنا ! كنت
العب وأعربد معتمداً على أن نادية هناك .. كنت أسافر مع السيد الوزير
في المؤتمرات وأتغيب كما أشاء .. وهى هناك فى البيت تربي وتشقى
وتقوم بكل شىء .. كانت شابة صغيرة تحب زوجها وأولادها .. وكنت
أنا شاباً مصرياً ينسى دائماً أنه متزوج .. كل الرجال فى مصر ينسون
أنهم متزوجون . ويتذكرون زوجاتهم عندما يعودون إلى البيت ، أما
خارج البيت فهم عُزَابٌ .. نادية رَبَّتْ طارق وسوزان وأحمد .. ولكنها لم
تُرَبِّنى أنا ..

ويفتح عز الدين فمه دهشاً ويقول :

- جُننْتُ يا ماجد ؟ منذ متى كانت الزوجات تُربِّين الأزواج ؟

- هذا ما ينبغى أن يحدث يا عز .. لقد غضبت جداً عندما تركتنا
نادية ومضتْ ، ولكن عندما بدأت أحمل مكانها شعرت فعلاً أنها
معذورة .. لقد أخطأتُ فى حقها .. أنا وطارق ..

- ولكنى ألاحظ أنك لا تكلف خاطر عناء البحث عنها ..

- إننى أعرف أنها بخير .. سوزان تذكر لى ذلك ..

- وهل سوزان تعرف أين نادية هانم ؟

- ربما ولكنها لا تقول شيئاً .. سوزان هى الوحيدة من بيننا التى
أحسَّتْ بالآم أمها .. أما أنا فقد كنت منساقاً فى طريق ابنى طارق ..
وطارق أخطأ خطأ بالغاً فى حق أمه .. لقد تناول عليها بعد كل الذى
فعلته من أجله .. وإلى يومنا هذا لم يشعر بجسامة الخطأ الذى ارتكبه ..

إنه واحد من أبناء هذا الجيل الجديد الذى تعود أن يأتيه كل شىء دون تعب .. كانت نادية تربيته وكنت أنا أفسده .. لقد احتملت معنا كثيراً جداً ، وفى النهاية لم تستطع أن تحتل أكثر ... تصور أننى اليوم أخاف أن أراها .. أخجل من نفسى .. لو أردت أن أجدها فأنا أعرف كيف أجدها ، ولكنى لا أجرؤ على مواجهتها ..

- كل هذا لا يبرر تركها لبيتها .. والآن أعترف بأننى السبب فى كل ما حدث من مشاكل ، ونسيت فضل نادية على وعلى الأولاد ، وتساهلت مع الابن ضد أمه ولم أطبق شرع الله تعالى فى البيت ، وهذا هو الجزاء .

.. أنت لا تفهم هذا يا عز لأن زوجتك واحدة من القطيع .. أولادكم الستة أكلوها وهى مع ذلك سعيدة بذلك ... إنها لا تحبك ... إنها تعيش معك دون أن تحبك .. لا أنت عرفت حبها ولا هى عرفت حبك ... لهذا فأنت لا تفهم مأساتى مع نادية ...

- يبدو يا ماجد أن الحكاية أثرت فى نفسك .

- نعم .. لقد هزنتى ... فجأة شعرت وكأننى صحوت من نوم عميق .. صحوت وقد عاد إلى حب نادية ... الحب القديم الذى نسيتته .. حبى لها أيام كنت شاباً صغيراً أعمل فى مكتب وزير .. هل تظن يا عز أنها يمكن أن تحبنى اليوم كما كانت تحبنى يوم تزوجنا .. هل يمكن أن تحبنى كما أحبها الآن ...

- وهل تظن يا ماجد أن هناك رجلاً فى الدنيا يعشق زوجته بعد الزواج ...

ربما نحن لا نعرف ذلك في مصر ... ولكنهم يعرفونه في أوروبا ...
هناك يعشق الرجل زوجته قبل أن يتزوجها ... وبعد الزواج يعشقها
أكثر ... لقد رأيت فيلماً أمريكياً مقتبساً من رواية لمؤلف أمريكي كبير لا
أذكر اسمه يدور حول هذا الموضوع بالذات ... رجل اختلف مع
زوجته وانفصلوا ... وبعد أن انفصلوا شعر أنه لا يستطيع العيش
بدونها ... وكان عليه أن يجرى من ورائها من جديد ، ويخطبها من
جديد ... وفي الستين تزوجا مرة أخرى زواج عاشقين ..
وظلَّ عز الدين يصف لصاحبه وهو لا يفهم . ثم رآه يعتمد رأسه
بين كفيه ويغيب عن الدنيا . وينظر إليه ذاهلاً . وفي صمت يخرج ويغلق
الباب وراءه .

* * *

تمت بحمد الله

قصص وروايات للمؤلف ملك للدار

- ١ - أهلاً وسهلاً .
- ٢ - مهر العروسة .
- ٣ - دموع باريس .
- ٤ - آدم يعود للجنة .
- ٥ - إدارة عموم الزير .
- ٦ - الوزارة الميمية الثانية (ورواية أخرى) .
- ٧ - كلهم فى النار .
- ٨ - على أبواب جهنم (ورواية أخرى) .
- ٩ - الجارية والشاعر .
- ١٠ - غداً تولد شمس أخرى .